لجنة التأليف والترجمة والنشر

اندريه جيد

السمفونية الريفية

ترجمة
حسن صادق

إهـــــداء2005

الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود

القاهرة

إهـــــداء2005

الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود

القاهرة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اندريه چيد

السمفونية الريفية

ترجمة
حسن صادق

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

نحوٌ من مقدمة

أندريه چيد مؤلف قصة « السمفونية الرّيفية » كاتب فرنسى معاصر ، ولد فى عام ١٨٦٩ ؛ فهو الآن فى التاسعة والستين من عمره . وقد ظهرت عليه مخايل النبوغ منذ كان يطلب العلم فى معاهد الدراسة الثانوية ، واكتسب إعجاب أساتذته بمقدرته الفائقة فى ميدان الأدب والبيان .

ولما نشر كتابه الأول « مذكرات أندريه والتر » فى سنة ١٨٩١ ، سطع نجمه فى سماء الأدب ، وذهب له به صيت وذكر ، ثم أخرج من بعد ذلك كثيراً من الكتب القيِّمة وأذاع فى امهات الصحف والمجلات أجمل القصص وأروع المقالات فى شتَّى الموضوعات ، وما يزال جمّ النشاط ، خصب الإنتاج فى عمق وطرافة . ويعتبر اليوم من أكبر كتّاب فرنسا الأحياء ، ومن أقواهم أثراً فى توجيه الشباب المثقف ، وأعظمهم توفيقاً فى الكشف لهذا الشباب عما يطلق عليه « الضمير العقلى أو الثقافى » .

نظم قليلاً من الشعر فى صدر شبابه ، ثم صدف عنه وشيكا ،

ومال إلى المذهب الرمزى ، أو على الأقل لمسه وحام حوله ، ولكنه لم يلبث أن أعرض عنه لسببين رئيسيين : الأول تشاؤم هذا المذهب واحتقاره للحياة الذى يتجلّى فى شكل محاربة الواقع ، والآخر كما يزعم أنه لم يجد لأصحاب هذا المذهب أية فكرة صحيحة أو جدارة فلسفية تستلفت النظر أو تستدر الإعجاب . وهو من أجل هذا تعشق الحياة الواقعية ، وجعل نصب عينيه غرضاً واحداً يصبو إليه وهو أن يكون كاتباً قصصيا .

ومع نفوره من التشاؤم — وهذا بعض ما فى خلقه من التناقض — فإنه يحب « شوبنهور » فيلسوف التشاؤم ، ويأخذ على الرمزيين ، وجلهم شعراء ، أنهم يفضلون عليه الفيلسوف « هيجل » .

ولكن سر إعراض « جيد » عن الرمزيين وحملته عليهم يكشف عن نفسه فى المجلد الثانى من كتابه « لو كانت البذرة لا تموت ... ... » ، إذ يعلن أن النثر خير من الشعر وأفضل .

وعلى الرغم من هذا الإعلان فإن أجمل كتب « جيد » — وهذا ضرب آخر من التناقض — عبارة عن قصص صغيرة فلسفية أو رمزية أو شعر منثور . أما القصة الطويلة الخالصة فهى فيما يظهر خارجة عن نطاق استعداده الحقيقى .

والمطلع على ما يكتب « جيد » يجد أن لهذا الكاتب الفذ فكرا قلقا أو على الراجح شديد التشوف ، مولعا بحب الاستطلاع ، يذهب فى السخرية حين تحلو له إلى حد الغرابة . وهو مصور صناع للحالات الأليمة الموجعة ، وشاعر بالحساسية المرهفة ، وبإدراكه لجمال الأمكنة والأجواء ، ولكنه شاعر مزود بملكة التحليل البارع الدقيق . وفضلاً عن ذلك فإنه ناقد من الطراز الأول ، يحتفظ فى أنواع جرأته الكتابية ببعض الأواصر التى تربطه بخير التقليدات الفرنسية المأثورة .

ومن مميزات « جيد » أنه غامض مستبهم فى كثير مما يكتب ، ولشعوره بهذا يقول « إن الذين سيفهموننى لم يولدوا بعدُ » . ويؤكد فى كثير من مصنفاته أنه لا يكتب إلا للأجيال القادمة . وقد يطيب له فى بعض الأحيان أن يقول إن كل توكيد حتى ولو صدر عنه ، ينشئ فى نفسه على الفور الجواب الذى ينكره ، وهذا يدل على القلق والتشوف كما ذكرنا . وفى الحق إن الفكر الناقد ينبغى أن يعدّد وجهات النظر ويزن كل شىء بميزان دقيق ، ولكنه يستطيع على الأقل أن يصل فى المسائل الواقعية إلى رأى جدير بالاعتبار إذا لم يكن مقيداً ببعض الضعف فى الخلق أو بتراخ وخور أو بخوف من التبعة .

وقد لوحظ فى مواضع كثيرة أن « جيد » تملكه هذه الرغبة فى الحرص والمداراة ، ويستولى عليه هذا الخوف من احتمال التبعة.

ومع هذا فهو فى بعض الأحيان ، وفى موضوع شاذ بعينه ، يذهب فى الصراحة إلى أبعد غاية . والمعروف عنه أنه لا يكترث للظروف ، إذ يعتقد أن إخضاع الفكر لها خطيئة كبرى لا تقبل الصفح والمغفرة ، ومن أجل هذا يحب من الرجال ما يسميهم هو بالعظماء أو الرجال الحقيقيين أمثال نيتشه الألمانى ودستويفسكى الروسى ، لأنهم أحرار لا يقيدهم خوف أو شفقة أو حياء أو حقد أو رغبة فى اكتساب احترام الغير .

وبمناسبة الصراحة تحضرنى قولة « روسو » المشهورة التى استهل بها اعترافاته « إنى أختط مشروعاً ليس له نظير قط ، ولن يكون له مقلد أبداً » ، وأجد أن الفيلسوف العظيم أخطأ التقدير ، فقد تحداه « جيد » وجرؤ على أن يقص تاريخ حياته تفصيلاً فى صراحة هى من القحة بحيث يجمل بالنشء أن يتجنب قراءتها .

وفى حياة هذا الكاتب الخاصة شذوذ يمس العلاقة الجنسية ورأيه فيها يصرح به فى كثير من كتبه ، ولست أدرى أية حاجة تدعو الإنسان إلى نشر الأهواء التى لا يمكن الدفاع عنها وتبريرها ؟ !

ومما يدعو إلى العجب أنه يؤكد نفوره الشديد من كل ما هو شاذ

يخالف الأوضاع المألوفة أو يحمل سمة المرض ، ويهنئ نفسه بأنه وجد « الطريق الطبيعى » وهو غير طريق كثرة الناس الغالبة ، لأنه يفصل الحب عن اللذة ويرى أن مزجهما خطأ لا مسوغ له . ومن عجيب أمره أن تربيته الدينية البروتستانتية المشددة تبدو بطريقة غير مباشرة فى احتقاره للجسد الذى يستغله ويسرف فى إنهاكه كأنما هو ينهك شيئاً دنيئاً نكراً .

وشذوذه هذا وتطرُّفه فى بعض الآراء السياسية حرماه من دخول الأكاديمية الفرنسية واحتلال المكان اللائق به بين الأربعين الخالدين . وما يزال الناس يذكرون كيف أنه مدح منذ أعوام النظام البلشفى وأثنى عليه الثناء كله ، ثم انقلب مدحه ذما قاسياً مريراً عقب زيارته لروسيا أخيراً .

وفضلاً عن نبوغ « جيد » فى البيان الفرنسى ، فإنه يجيد معرفة اللغات الألمانية والإنجليزية والإيطالية واللاتينية واليونانية ، ويستوعب آداب هذه اللغات جميعاً .

وأدب هذا الكاتب خفى ومحدود ، لأنه يخرج فى بعض الأحيان كتباً لا تحمل اسمه ولا يطبع منها إلا عدداً صغيراً ، فكأنه يتجنب الشهرة على النقيض من الكتّاب الآخرين ، ويخيّل إلىّ أنه يكتب لنفسه أو لمائة من القراء على أكثر تقدير كما كان يفعل

« ستندال » ، والفن عنده ليس غاية ، وأعماله الأدبية ليست فى نظره كـكائن حى ينبغى بمجرد انفصاله عنه أن تكون له حياة خاصة وأن يدوم خلال دورة الزمن .

أما ذهنه فذاتى محض ، ومن أجل هذا نجد أن كتبه ليست إلا مسارَّات واعترافات ، عبر فيها بدافع لون من ألوان الحاجة الشخصية عن لحظات من تفكيره ، ثم لم يعد لها قيمة عنده أكثر من قيمة الأوراق المهملة المصفرة أو الأزهار الجافة الذابلة . وبرغم هذا كله بلغ ذروة المجد وغاية الشهرة .

وأما ميدانه الأدبى الذى يكلف به فهو الحالات الخاصة والشاذة والمسائل الغريبة كما سيتبين القارئ من سمفونيته الريفية ، والآفاق التى لم تستكشف الغنية بالصعاب وبالأخطار الجديدة ، ومثله فى ذلك مثل بلزاك ودستويفسكى .

وقد أجمع نقاد الأدب على أن « السمفونية الريفية » من أروع ما كتب « جيد » ومن أكثر الأعمال الأدبية قرباً من الكمال الفنى الشائق الملهِم ، ولا عيب فيها سوى أنها قصيرة لا تطيل أجل اللذة العقلية والنفسية التى تبعثها فى شخص قارئها .

حسن صادق

الكراسة الأولى

١٠ فبراير ١٨٩ .

تراكمت الثلوج التى لم تفتر عن السقوط منذ ثلاثة أيام فى الطرق وعوقت السير فيها ، فلم أستطع الذهاب إلى (ر) التى اعتدت أن أقيم فيها شعائر المذهب البروتستانتى مرتين فى كل شهر مدى خمسة عشر عاماً بغير انقطاع . ولم يجتمع فى هذا الصباح من المؤمنين الأتقياء إلا عدد يبلغ الثلاثين فى بيعة « لابريفين » الصغيرة .

سأنتفع بهذا الفراغ الذى أعد لى أسبابه احتباسى الإرغامى الذى يشبه الاحتجاز فى الدير ، لأعود بالذاكرة إلى غضون الماضى وأروى كيف بلغت بى الحال إلى أن أشغل نفسى « بجرترود » وأجعل جهد عنايتى وقفاً على شأنها .

وقد اعتزمت أن أسجل هنا كل ما يمس التكوين ويتصل بخطوات التفتح والنمو لهذه النفس الورعة النقية ، التى يخيل إلىّ أنى لم أخرجها من الظلمة إلا لتكون خالصة للحب والسعادة . . . . . .
اللهم إنى أحمدك إذ اخترتنى لهذه المهمة !

***

منذ عامين وستة أشهر ، بينما كنت أصعد من « شودى فون »

إذا بفتاة غضة الإهاب لم أعرفها من قبل تسعى إلىّ مسرعة لاهثة لتذهب بى إلى شيخة مسكينة تعانى آلام النزع المريرة على بعد سبعة فراسخ من مكانى .

وكان الجواد معدًّا لم أفصله من العربة ليستريح ، فأركبت الفتاة إلى جوارى ، بعد أن حصلت على مصباح ، إذ توقعت أنى لن أستطيع العودة قبل الليل .

كنت أعتقد أنى أعرف الناحية كلها جد المعرفة ، ولكن الفتاة بعد أن مررنا بمزرعة « لاسودراى » جعلتنى أسلك طريقاً لم أكن قد غامرت بنفسى فى اجتيازه إلى ذلك الحين . ومع ذلك عرفت ، على بعد فرسخين منى فى الجهة اليسرى ، بحيرة صغيرة مستبهمة كنت أرتاد حفافها فى بعض الأحيان وأنا فى رونق الصبا وريّق الشباب . ولكنى لم أرها منذ خمسة عشر عاماً ، إذ لم يستدعنى إلى تلك الناحية أى واجب دينى ، فلم يعد فى وسعى أن أقول أين هى ، وكنت أثناء هذا الزمن الطويل قد صدفت عن التفكير فيها حتى أنه خيل إلىّ حين أخذتها ببصرى وتبينتها بغتة فى سحر المساء الوردى الضارب إلى صفرة الذهب أننى لم أرها للمرة الأولى إلا فى حلم من الاحلام .

وكان الطريق ممتدا إلى جانب مجرى الماء ، ثم انشعب عنه قاطعاً طرف الغابة ، وانبسط من بعد ذلك محاذياً لعين ماء آسن يعلو أديمها

الطحلب الراكد... وليس من شك فى أنى لم أطأ قط هذا المكان .

غربت الشمس وكنا نسير من وقت طويل فى الظلام . وعلى حين بغتة أشارت الفتاة بإصبعها إلى جانب من جوانب ربوة ، ولفتت نظرى إليه ، فرأيت كوخاً من السهل على الناظر إليه لأول وهلة أن يعتقد أنه خرب خال من الناس ، لولا خيط دقيق من الدخان يتصاعد منه ضارباً إلى الزرقة فى ظلام الليل ثم إلى الصفرة حين يعلو إلى تبر الأفق .

ولما صرت على قاب خطوات من الكوخ ، ربطت الجواد إلى شجرة تفاح مجاورة ، ثم لحقت بالفتاة فى الغرفة المعتمة التى يتكون منها هذا المسكن البائس ، فوجدنا الشيخة قد استوفت أنفاسها منذ قليل .

وفى ذلك الموقف اصطلح علىّ وحشة المكان وجلال السكون ورهبة المنظر ، فبعث كل أولئك الرعب فى نفسى وأخذ منها كل مأخذ . ورأيت غير بعيد من الفراش امرأة جاثية مايزال الشباب يألفها ويستطيب صحبتها ، ثم أشعلت الفتاة شمعداناً له دخان ، ووقفت عند مؤخر الفراش جامدة لا تنبس ولا تطرف ؛ وكنت حسبتها بادئ الرأى حفيدة الميتة ، ولكنها لم تكن إلا خادمتها ، وقد حاولت أثناء الطريق كله أن أصل معها حبل الحديث ، ولكنى لم أظفر منها بما ينقع غلة التشوف .

نهضت المرأة الراكعة ، ولم تكن من أهل المتوفاة كما ظننت عند رؤيتها ، بل كانت جارة صديقة استدعتها الخادم حين رأت سيدتها تذبل وتضعف وتحتضر ، فجاءت وأعلنت جميل استعدادها للسهر إلى جانب الجثمان الهامد ، ثم أنبأتنى أن الشيخة لفظت نفسها الأخير فى هدوء لا يشوبه ألم . واتفقنا معاً بعد ذلك على الأمور الخاصة بالدفن وتشييع الجنازة . وكان من الواجب علىّ ، كما وقع لى كثيراً من قبل فى تلك النواحى المنعزلة المفقودة ، أن أقرر كل شىء وأقوم بكل أمر

وإنى أعترف بأنى كنت محرجاً قليلا ، إذ كيف أترك هذا الكوخ فى حراسة الجارة وهذه الفتاة الخادم ، مهما يكن مظهره دالا على الفقر المدقع ناطقاً بالبؤس البالغ ؟! ومع ذلك ليس من المقبول عقلا أن يكون فى زاوية منه كنز مستتر . . . وماذا كنت أستطيع فعله فى هذه الحال ؟ وبرغم ما جال بذهنى من الخواطر ، سألت هل تركت العجوز وريثاً ؟

ولما فرغت من إلقاء سؤالى ، تناولت الجارة الشمعدان وأرسلت ضوءه إلى ركن من الغرفة ، هو مطهى الكوخ ، فاستطعت أن أتبين فيه كائناً غير واضح الأجزاء ، جالساً القرفصاء تدل هيئته على أنه مستغرق فى النوم . وكان شعره الكثيف الفينان يكاد يخفى وجهه إخفاء تاما

قالت لى الجارة :

— هذه الفتاة الضريرة . إنها ابنة أخيها ، إذا صدق قول الفتاة الخادم ، وهى آخر سلالة الأسرة فيما يظهر ومن بقى من أفرادها فى العاجلة . ينبغى إيداعها أحد الملاجئ ، وإلا فلست أدرى كيف يكون مصيرها

آلمنى وآذى نفسى أن أسمع هذه المرأة تبت على هذه الصورة فى مصير الفتاة أمامها ، وبلبل بالى استشعار الحزن الذى قد تنتجه فى دخيلتها هذه الأقوال الخشنة العارية من التجمل والرفق ، فقلت فى خفوت وهدوء لأدعو الجارة بهذه الوسيلة إلى أن تخفض من صوتها :

— لا توقظيها

— آوه ! لا أظنها نائمة ، ولكنها بلهاء لا تتكلم ولا تفهم شيئاً كما يقال . وهى من وقت قدومى إلى هنا فى هذا الصباح لم تتحرك إلى الآن تقريباً . اعتقدت أول الأمر أنها صماء ، ولكن الخادمة تدعى غير ذلك وتقول بأن حالها ترجع إلى أن الشيخة لم توجه إليها الكلام قط ، كما أنه لم توجهه إلى أى إنسان آخر ، وأن الفتاة لم تعد تفتح فمها منذ زمن بعيد إلا حين تبل أوامها بشربة أو تبتلع بلقمة

— وما عمرها ؟

— أظنها فى الخامسة عشرة من عمرها . وعلى كل حال ، فإنى لا أعرف من هذا الأمر أكثر مما تعرف أنت . . .

لم يطرأ على ذهنى فى الحال أن أجعل شأن هذه الفتاة المنبوذة من نصيب عنايتى الشخصية ، ولكنى بعد أن فرغت من الصلاة ، أو على الأرجح ، أثناء إقامة الصلاة راكعاً بين الجارة والخادم الصغيرة الجاثيتين مثلى على مقربة من الفراش ، أدركت وتمثل لنفسى أن الله جلت قدرته قد وضع فى طريقى ضربا من الالتزام ، وأنى لا أستطيع التنحى عن القيام به دون أن أكون نذلا جباناً

ولما نهضت من ركوعى ، كنت قد أمضيت عزمى على أن أستصحب معى الفتاة فى المساء نفسه ، وإن كنت لم أستوضح نفسى بعدُ عما يكون من أمرى معها بعد ذلك ولم أسائلها عن الشخص الذى سأستودعه إياها ليعنى بحالها

قضيت بعض لحظات فى تأمل وجه العجوز الميتة ، وكان فمها ذو التجاعيد والنتوء يبدو مشدوداً كأن طرفيه قد جذبا بخيط كيس بخيل ، مدرب على الحرص الشديد فلا يدع شيئاً يفلت منه . ثم التفت إلى الضريرة ، ونفضت إلى الجارة جملة ما انتويت ، فقالت :

— الأمثل أن لا تكون الفتاة هنا غدا حين يأتى القوم لحمل الجثة إلى قبرها .

وكان هذا نهاية الحديث بيننا

ما أكثر الأشياء التى كان من السهل تدبيرها ، لولا الاعتراضات الوهمية التى يتسلى الناس أحياناً بابتكارها ! وكثيرا ما حيل بيننا ،

منذ الطفولة ، وبين هـذا العمل أو ذاك مما كنا نرغب فى أدائه ، لا لشيء إلا لأننا نسمع لهذه الجملة تطلق من حولنا فى دؤوب وتكرار : إنه لن يستطيع أداءه . . .

أنهضت الفتاة فاستسلمت واستقادت كأنها دابة سليب الإرادة وكانت قسمات وجهها منتظمة متسقة تحظى بقسط وافر من روعة الجمال ، ولكنها لم تكن حية فصيحة تمام الإفصاح . ثم تناولت غطاء وجدته على الحشية التى كانت تتخذها فراشاً لها فى ركن من الغرفة تحت سلم داخلى يؤدى إلى مخزن الحَب ، وساعدتنى الجارة فى صدق ولطف على أن ألف جسم الفتاة بهذا الغطاء لفا محكما ، لأن الليل كان رطباً على الرغم من صحوه وصفائه

ولما فرغت من هذا العمل ، أشعلت مصباح المركبة ، وقفلت راجعاً وإلى جانبى فى التصاق شديد هذه الكتلة البشرية الساكنة التى لم ألاحظ عليها الحياة إلا من الحرارة المظلمة التى كانت تشعها فى جسمى

وكنت أفكر أثناء الطريق وأقول لنفسى : أنائمة هى ؟ وما أشد سواد هـذا النوم ؟! ... وفى أى شيء يختلف السهر هنا عن النوم ؟ رَب إن نفساً سجينة تسكن هذا الجسد المائل المنحرف ، وهى تنتظر من غير شك أن يمسها آخر الأمر شعاع من نور عطفك

ورحمتك ! أتسمح يا مبدع الكون بأن حبى ، ربما يبعد عنها الظلام البشع المخيف ؟...

لا أستطيع الصبر على كتمان الاستقبال السيئ الأليم الذى لقيته عند عودتى إلى بيتى ، لأنى كلف بالحقيقة أكثر مما ينبغى

زوجى روضة تنبت فيها أغراس الفضائل ، ولم أستطع أن أشك لحظة واحدة فى معدن قلبها النقى الكريم ، حتى فى أصعب الأوقات التى مرت بنا أحياناً وفى أشد الأزمات التى قدر علينا أن نعانيها ونجتازها . ولكن عطفها الطبيعى ينبغى ألا يُفاجأ ويُغتفل . إنها شخص مولع بالنظام تصر على أن لا تسبق الواجب قبل أن يحل ، ولا أن تتوانى عن أدائه فى حينه . وبرّها نفسه منتظم له عندها قواعد ثابتة ، حتى لكأن الحب كنز يفنيه سوء التدبير وبسط الكف كل البسط ! وهنا نقطة الخلاف الوحيدة بيننا . . .

الفكرة الأولى التى نشأت فى ذهنها حين رأتنى أعود فى ذلك المساء مع الفتاة المسكينة ، أفلتت من بين شفتيها فى هذه الصرخة :

— ما الذى أضفته الليلة أيضاً إلى أعبائك ؟

أدركت أننا سنلج باب المناقشة لا محالة كما هى العادة فى كل مرة ، فبدأتُ بالأطفال أطلب إليهم الخروج ، وكانوا وقوفاً ونفوسهم فى قبضة الدهش وأعناقهم مشرئبة على ظمأ إلى الاستطلاع آه ! لشد ما كان هذا الاستقبال مختلفاً عما كنت أتمناه !

ابنتي العزيزة «شارلوت» الصغيرة هي وحدها التي شرعت ترقص طرباً وتصفق بيديها ابتهاجاً حين فهمت أن شيئاً جديداً ، شيئاً حيا سيخرج من المركبة . ولكن الآخرين الذين صبتهم أمهم في قالبها منذ الطفولة ثاروا بأختهم وقذفوها بالكلمات الباردة التي تطفئ شعلة الحماسة ، وأخذوا عليها الطريق لتزل قدماها

مرت بنا لحظات اضطراب وتبلبل وحيرة ، وعجزت امرأتي وأولادي عن استخلاص السبب الذي يدفعني إلى إظهار الحرص الشديد حين أخذت بيد الفتاة وقدت خطاها في عطاف الرفق والحذر ، لأنهم لم يدركوا إلى تلك اللحظة أنهم يستقبلون في دارهم فتاة فاقدة البصر

ولقد تملكتني حيرة العجب واستقلتني رعدة الفزع ، فضلاً عنهم ، ما أن تركت يدي يدها التي لم أنحها خلال الطريق كله ، إذ طفقت تصعّد أنات عجيبة لا عهد لنا بمثلها من قبل . وفي الحق لم يكن في صرخاتها شيء إنساني ، ويكاد يجزم الذي يسمع لها بأنها عواء كلب صغير يشكو ويتململ .

وكانت في أثناء مشيها تتخلج ركبتاها وتنثني ، وتتزايل ساقاها وتلتوي ، لانتقالها فجأة وللمرة الأولى من حيز المشاعر المألوفة الضيق الذي كان يشمل كل عالمها . ولما دفعت نحوها مقعداً سقطت على الأرض قانعة مستسلمة كشخص لم يعرف الجلوس.

طيلة عمره . ولم أر فى هذه الحالة بدا من أن أقودها إلى مكان قريب من الموقد ، فاستعادت قليلا من الهدوء والطمأنينة حين استطاعت أن تجلس القرفصاء ، كما رأيتها فى بيت الشيخة عند دخولى ، على مقربة من الموقد ومستندة إلى حافة المدفأة . وهـذه جلستها التى تألفها فيما أعتقد ، لأنها فى المركبة أيضا أثناء الطريق ، انزلقت بملء رغبتها إلى أسفل المقعد وجمعت نفسها عند قدمىّ وظلت على هذه الحال حتى بلغنا البيت

ساعدتنى امرأتى على الرغم من شعورها ، وهى فى غير مواربة كلما صدر عنها نزوع أو توثب بمحض الطبيعة وبعيد كل البعد عن التكلف ، كان هذا دائما خير اندفاع أراه منها ، ولـكن عقلها كان يناضل فى كل حين وينتصر على قلبها فى أغلب الأحايين

قالت بعد أن استقرت الفتاة فى مكانها :

— ماذا انتويت أن تفعل « بهذا » ؟

سرت بجسمى رجفة عنـد سماعى لـكلمة « هذا » الجامدة تستعمل فى الإشارة إلى الفتاة ، ونشأ فى صدرى سخط وغضب ، فأمسكت عليهما فى جهد عنيف ، وساعدنى على ذلك أنى كنت لا أزال متشبعاً بتأملى الطويل الهـادئ ، ثم التفت إليهم جميعاً ، وكانوا قد اجتمعوا من حولى ثانية فى شـكل دائرة ، ووضعت يدى على جبين الضريرة ، وقلت لهم بصوت رنان كأنى فى حفل مشهود :

— إنى أعيد إلى الحظيرة الشاة الضالة !

ولكن امرأتى « أميلى » لا تقبل ولا تقر أن يكون فى تعاليم الإنجيل أى شيء ، مهما يكن ضئيلا ، خارج عن حيز المألوف أو بعيد عن حدود المعقول أو فوق الطاقة ، ومن أجل ذلك أدركت أنهـا ستحتج ، فأشرت إلى « جاك » و « سارة » ليأخذا الولدين الصغيرين إلى خارج الغرفة ففعلا . وكانا فضلا عن ذلك قليلى الفضول والتشوف بطبعهما

ظلت زوجى بعد خروج الأولاد مبهوتة بادية الضيق والحيرة ، وخيل إلىّ أنها مغيظة محنقة قليـلا من جراء بقاء الدخيلة معنا ، فقلت لها :

— تستطيعين أن تتكلمى أمامها . إن الفتاة المسكينة يستبهم عليها اللفظ ويستغلق دونها المعنى

وما أن فرغت من قولى حتى شرعت « أميلى » تحتج بأن ليس عنـدها ما تقول من غير شك — وهـذه هى المقدمة المألوفة لأطول المناقشات التى تقع بيننا — وأنها لا تجد سبيلا إلا أن تخضع كما هو الشأن دائماً لما عسى أن أبتكر ، مما يكون بعيداً كل البعد عن الميدان العملى ومناقضاً كل المناقضة للأوضاع المأثورة والفكر السليم

ولقد ذكرت فيما سبق أننى لم أبت فى أمر الفتاة ، ولم أفكر ،

أو فكرت على الأرجح فى غموض شديد ، فى أن من المستطاع إسكانها بدارنا . ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن « أميلى » هى التى بدأت وأوحت إلىّ الفكرة لما سألتنى : هل لم يَدُر فى خلدى أننا بعددنا الراهن نملأ البيت ويكاد تضيق بنا حجراته ؟! ثم أعلنت إلىّ أنى أندفع دائما إلى إنفاذ ما أرى دون أن آبه لمقاومة الذين يُفرَض عليهم اتباعى ، وأنها من ناحيتها تعتقد أن خمسة أولاد فيهم الكفاية ، وقد قامت بواجبها فى الحياة النسوية خير قيام وأدت حساب الأمومة على أكمل وجه منذ أن وضعت « كلود » أصغر أبنائها (وفى هذه اللحظة على التحقيق شرع الطفل يبكى ويصرخ فى مهده ، كأنه كان فى انتظار النطق باسمه ليجيب بالعويل) ، وهى من أجل ذلك تشعر بأنها بلغت الغاية فى بذل الجهد حتى أصابها الكلال والونى

ولما رنّت الكلمات الأولى من احتجاجها المرير فى أذنىّ ، صعدت من أغوار قلبى إلى شفتى بعض جمل من أقوال المسيح فآثرت احتجازها ، إذ أدركت أن من فساد الذوق وإنكار اللياقة أن أحمى سلوكى بسياج من هيبة الكتاب المقدس وسلطانه . ولكنها لما ذكرت ما أصابها من الضعف والفتور ، ذهل خاطرى والتوى علىّ الكلام وطما بى الخجل والاضطراب ، إذ تذكرت فى وضوح وجلاء أننى طالما تركت نتائج توثبى الطائش الذى تلهمنى إياه

حماستى ، تقع على عاتق امرأتى وتثقل على نفسها . ومع ذلك ، فإن هـذه التهم التى وجهتها إلىّ ، قد ألقت علىّ دروساً فى الواجب المفروض علىّ.

ولما هـدأ بعض ما بى ، ضرعت إليها فى لين ورفق أن تستصرخ الأناة والروية لترى أإذا قدر لها أن تكون فى مكانى ، وأن يقع لها ما وقع لى ، أكان فى وسعها ألّا تفعل مثل ما فعلت ؟! وهل كان من السهل عليها أن تجد مخلوقا لم يعد له فى الحياة حقا من تلجأ إليه وتعتمد عليه ، وتتركه فريسة المحنة صريع الكربة ؟!

سكت قليلا ثم عدت أقول بأنى لا أغذى نفسى مطلقاً بالوهم ، فلا أنسى مبلغ التعب الجديد ، فى شتى الألوان والصور ، الذى ستنتجه العناية بهـذه الفتاة الضريرة ، ويضاف ضغثاً على إبالة إلى أعباء البيت وهمومه . وجهرت لهـا بأسفى على أنى لم أعد أستطيع مساعدتها أكثر مما أفعل على القيام بما تنوء بحمله . ولما وفقت إلى تهدئة خاطرها جهد المستطاع ، توسلت إليها مرة أخرى ألاّ تحمل للفتاة البريئة فى صدرها حقداً أو ضغينة ، لأنها لم ترتكب إثماً يستوجب هـذا الجزاء الأليم . ثم نبهتها فى إيناس وعذوبة إلى أن « سارة » غدت فى سن تمكنها من معاونتها أكثر من ما مضى ، وأن « جاك » أصبح فى مقدوره أن يقوم بشأن نفسه فى غير حاجة إلى عنايتها

والخلاصة أن الله ألهمنى الأقوال اللازمة فى مثل هذا المقام ، لكى أقنعها وأعبّد لها السبل حتى تقبل ما أنا مستيقن بأنها كانت تنهض به عن طيب خاطر ، لو كان الحادث قد ترك لها فسحة من الوقت لإعمال الفكر واستلهام الضمير ، ولو لم أتصرف فى إرادتها بالمباغتة على هذه الصورة

اعتقدت أنى أصبت النجاح وربحت القضية ، لأن « أميلى » العزيزة ما لبثت أن دنت من « جرترود » فى حنان ورقة ، وبيدها المصباح لتتفرس فيها قليلا . ولكنها وقفت فجأة وعاد هياجها إلى أفظع مما كان ، لما أخذت بمجامع عينيها قذارة الفتاة التى يعجز عن وصفها البيان ، ثم قالت وهى تصرخ

— هذا تعفن ! هذا نتن ! نظف ملابسك ... أسرع ونظف ملابسك ... كلا لا تفعل هنا ... أخرج وطهر ثيابك مما علق بها... آه ! رحمتك اللهم ! ستغمر أولادى هـذه القذارة ! ليس فى العالم شىء أخشاه مثل ما أخشى الديدان والدويبات !

وفى الحق كانت الفتاة المسكينة مثقلة إلى درجـة لا يمكن إنكارها بهذين النوعين ، ولم أستطع أن أحبس فى صدرى حركة اشمئزاز وتقزز ، وأنا أفكر أنى ضممتها إلى صدرى فى المركبة كل هذا الوقت الطويل

نظفت ملابسى فى الخارج وعدت إلى الغرفة بعد دقيقتين ،

فوجدت زوجى قد استلقت على أحد المقاعد متساقطة من الغضب والخور ، ورأسها بين راحتيها شأن من يكابد برحاء الهموم . ولما دنوت منها وجدتها تعانى أزمة حادة من التنهدات العميقة ، فقلت لها فى لهجة رفيقة أشربتها الحنان الوفير :

— لم أقصد ألبتة إلى أن أُخضع صبرك وثباتك لتجربة مثل هذه . ومهما يكن من الأمر ، فإن الوقت قد تقدم هذا المساء ، وليس من السهل علينا أن نبصر جيداً . سأسهر لأراقب النار التى ستنام الفتاة فى دفئها وأتعهدها بالوقود من حين إلى آخر حتى لاتضعف أو تخبو . وغدا سنقص شعرها ونغسل جسمها كما ينبغى ، ولن تشرعى فى العناية بها إلا حينما تستطيعين النظر إليها فى غير نفور أو غضاضة

ورجوت منها فى النهاية ألا تحدث إلى الأولاد فى هذا الموضوع

حانت ساعة العشاء ، فجلسنا جميعًا إلى المائدة ، وأحضرت خادمتنا العجوز « روزالى » صحاف الطعام ، وكانت فى أثناء قيامها بخدمتنا ، تصوب نحو الفتاة نظرات حادة تشع العداوة والبغضاء . أما « جرترود » المسكينة فقد التهمت الحساء الذى قدمته إليها فى شراهة عجيبة

انقضى العشاء فى سكون وصمت ، وكنت شديد الرغبة فى أن أقص ما وقع لى وأتحدث إلى الأولاد وأحرك فى نفوسهم أوتار

الرحمة وأجملهم يدركون ويحسون غرابة هذا البؤس المستبد الباغى وأهيج فى صدورهم العطف على هذه الفتاة التى دعانا الله إلى إيوائها والبر بها ، ولكنى خشيت أن أبعث هياج زوجى تارة أخرى ، فلزمت جانب الصمت ، وكأن أمراً قد صدر إلينا بأن نصدف عن هذا الموضوع وننسى الحادث ، مع أن كلينا لم يستطع دون ريب أن يفكر فى شىء آخر سواه

ذهب الأولاد بعد العشاء إلى مضاجعهم ، ودلفت امرأتى إلى فراشها ، فبقيت فى الغرفة وحدى ، أستوعب سوانح الآراء وخلجات النفس . وبعد انقضاء ساعة رأيت ابنتى « شارلوت » تفتح الباب فى حرص وحذر ، وتتقدم فى بطء وهدوء وهى حافية القدمين وفى قميص النوم الفضفاض ، ثم تلقى بنفسها على صدرى وتحتضننى فى قوة متوجدة وهى تجمجم قائلة : لقد نسيت أن أقول لك مساء الخير يا أبى !

نال هذا المنظر من نفسى منالا كبيرا حتى أخذ علىّ التأثر شعاب الكلام فعييت عن الجواب . وكانت « شارلوت » شديدة الرغبة فى أن ترى الفتاة ثانية قبل أن يرنق النوم فى عينيها فجاءت سيرا على حكم هذه الرغبة اللجوج . وبعد لحظات أشارت بسبابتها الصغيرة إلى « جرترود » النائمة فى براءة تملأ العين والنفس وقالت فى صوت خافت يكاد لا يسمع :

— لماذا لم أقبّلها ؟

— ستقبلينها غداً . فلندعها الآن . إنها مستغرقة فى النوم

وفى أثناء قولى كنت أقودها برفق إلى الباب الذى دخلت منه ، ثم عدت إلى جلستى وقضيت بقيــة الليل فى القراءة وإعداد خطبتى الدينية القادمة حتى تبلج الصبح وتحلب ضوءه إلى الغرفة

ولقد فكرت فى خلوتى وقلت لنفسى (وما أزال أذكر هذا) إن « شارلوت » أظهرت اليوم من غير شك أنها أكثر عطفاً وأغزر حناناً من إخوتها الـكبار . ولـكن ألم يبد كل واحد منهم فى مثل سنها ، هذه العواطف نفسها ؟ . . . حتى « چاك » أكبرهم أراه بعيـداً بمشاعره إلى حد الإغراق ، متحفظاً فى عشرته إلى حد المبالغة . . . يعتقد الإنسان أن فى قلوبهم رقة نامية ، ولـكنهم فى الواقع يحذقون الظرف والمصانعة ، ويجيدون التدلل والمداعبة

***

٢٧ فبراير

تساقط الثلج أيضاً بغزارة هذه الليلة ، والأولاد فى نشوة الابتهاج ؛ لأن الإنسان كما يقولون مهللين جذلين سـيضطر فى القريب العاجل إلى الخروج من النوافذ . والحقيقـة أن الثلج كان يحاصر الباب فى هذا الصباح ، فلا يستطيع أحد أن يخرج إلى الطريق إلا من حجرة الغسل . وبالأمس لم يهدأ لى بال حتى ثبت لدىّ أن

بالقرية من الطعام ما يسد حاجة أهلها ، إذ أدركت أننا سنظل دون ريب بعض الوقت فى عزلة عن بقية الناس .

وليس هذا هو الشتاء الأول الذى تحاصر الثلوج فيه بيوتنا ، وتأخذ علينا الطرق والمنافذ ، ولكنى لا أتذكر أنى رأيته فى السنين الخالية سميكا كثيفاً إلى هذا الحد الذى يعوق الناس عن أداء أعمالهم وقضاء حاجتهم . وإنى أنتهز هذه الفرصة لأستمر فى كتابة القصة التى بدأتها بالأمس .

قلت إنى لم أسائل نفسى قط كما ينبغى حينما اقتدت الفتاة الضريرة ، عن المكان الذى تستطيع أن تشغله فى البيت . وكنت أعلم مبلغ المقاومة الضئيلة التى ستبديها امرأتى ، وأعرف المكان الذى كان فى وسعنا أن نتصرف فيه ، وأدرك تمام الإدراك حدود رزقنا الضيقة التى تكاد لا تتسع لحاجة الأسرة . ولكنى أقدمت على ما فعلت ، كدأبى دائماً ، مدفوعاً بالاستعداد الطبيعى الذى فطرت عليه ، والمبادئ التى ارتضيتها وملكت علىّ مشاعرى ، فلم أفكر لحظة واحدة فى تقدير النفقة وقيمتها الحسابية التى تحمّلنى فعلتى عبئها الفادح (وهذا ما ظهر لى دائماً مخالفاً للإنجيل) يضاف إلى ذلك اعتمادى على الله ، وارتكانى إلى شخص آخر يجنبنى احتمال النتائج .

ولكنى بعد ترو قليل أدركت فى وضوح أننى ألقيت على كاهل

امرأتى عبئاً ثقيلا ، فظللت أول الأمر فى حيرة وخجل بالغين .

ساعدتها بقدر استطاعتى فى قص شعر الفتاة ، وقد رأيت جيداً أنها تقوم بهذا العمل وهى تجاهد الاشمئزاز فى دخيلتها . ولما جاء دور غسلها وتنظيف جسدها اضطررت إلى ترك ذلك لزوجى تقوم به وحدها ، وحمدت الله على أنه أنقذنى من الاشتراك فى هذه المهمة البغيضة .

والواقع الذى ينبغى الجهر به أن « أميلى » لم تنبس بعد ذلك بأقل تأفف أو احتجاج . وخيل إلىّ أنها أطالت التفكير أثناء الليل وأصبحت على قرار يحبب إليها هذا العبء الجديد . وبدا لى فضلا عن هذا أنها ابتهجت بعملها بعض الابتهاج إذ رأيتها تبتسم حينما فرغت من تنظيف « چرترود » وإعدادها .

غطت رأسها الحليق بطاقية بيضاء بعد أن وضعت عليه بيدى طبقة رقيقة من مرهم كان عندى ، ولبست بعض ثياب « سارة » الداخلية والخارجية النظيفة التى لم تعد تلائم نموها ، وخلعت الأسمال القذرة فألقتها « أميلى » فى نار الموقد .

ولا يسعنى إلا أن أسجل هنا أن اسم « چرترود » اختارته ابنتى « شارلوت » ورضينا به على الفور لأننا نجهل اسم اليتيمة الحقيقى كما تجهله هى نفسها ، ولم أدر كيف أصل إلى معرفته . وأيقنت بأن الفتاة أصغر سنا من « سارة » لأن ملابس هذه لاءمت قوامها كل

الملاءمة كأنها صنعت خصيصاً لها .

وأجد من الواجب الذى لا محيص عنه فى هذا المقام أن أجهر بخيبة الأمل العميقة التى تملكت قلبى خلال الأيام الأولى . فقد وضعت لتربية « چرترود » منهجاً خصب الخيال ، ولكن الحقيقة انقضت علىّ وأرغمتنى على تناوله بالحذف والتخفيف ، ونفذ تعبير وجهها الدال على البله وعدم الاكتراث وظلمة العقل ، أو على الأرجح تعبيره الأبكم الذى لا ينطق أبداً بشىء ، إلى أغوار عزمتى الخالصة التى خفقت فى نفسى ، فأطفأ حماستها المتأججة وقضى على نشاطها المتوثب .

كانت تمكث طوال النهار على مقربة من المصطلى أليفة الحذر حليفة الخوف والفزع متأهبة للدفاع عن نفسها فى كل لحظة ، فإذا سمعت أصواتنا ، وعلى الأخص إذا أحست بدنو أحد منها ، اكفهر وجهها وأشعرت قسماته الناظر إليها الجفاء والخشونة . وهذه القسمات البكماء لا تعبر عن شىء إلا حين تتلفع بالخوف والجهومة . وإذا حاول أحدنا أن يسترعى انتباهها فى هوادة ورفق ، شرعت تئن أنيناً موجعاً وتملأ فضاء المكان بأصوات غريبة تشبه أصوات الحيوان حين تزمجر وتغضب ، ولا تسكن من نفارها إلا حين أقدم إليها الطعام فتلتهمه فى شراهة بهيمية هى من أشد ما يحرق النفس بالألم . وكما يولّد الحب حبا مثله ويستجيب له ،

كذلك شعرت لجمود هذه النفس العنيد بسيل من الكراهية يهمي على قلبي ويغمر مشاعري . أقول هذا حقا وأعترف علانية بأنى شعرت باليأس يتسرب إلىّ فى الأيام العشرة الأولى ، وصدفت عن الاهتمام بأمر هذه الفتاة ، وبلغت بى الحال حد الأسف على ما فعلت ووددت لو لم أكن شملتها بعطفى وجئت بها إلى بيتى .

ومما يستوجب العجب أن « أميلى » حين وقفت على عواطفى التى عجزتُ عن إخفائها جيداً عنها ، أخذتها نشوة الظفر ، وأسرفت فى العناية « بچرترود » بقلب ملؤه أنقى ضروب الإخلاص فيما يظهر ، من وقت أن شعرت بأن هذه الفتاة أصبحت عبئاً ثقيلاً علىّ ، وأن إقامتها بيننا تخجلنى وتخزينى .

وإنى لفى هذه الحال ، إذا صديقى الطبيب « مارتان » ، من « ڤال تراڤِرْ » يسعدنى بزيارته أثناء طوافه على مرضاه . ولما استقر فى جلسته ، قصصت عليه قصة « چرترود » فاهتم بها جد الاهتمام ، وعجب أشد العجب لحالة التأخر والركود المطلق التى بقيت فيها إلى ذلك الحين ، مهما تكن كفيفة البصر . ولكنى شرحت له كيف أن الفتاة فضلا عن عاهتها لم تعاشر غير عمة لها عجوز صماء لم تخاطبها قط ، فبقيت التعسة إلى الآن صامتة جامدة مهملة إلى أقصى غاية الإهمال . ولما فرغت من شرحى أفهمنى أننى فى هذه الحال أكون مخطئاً إذا استسلمت إلى اليأس ، فلم أدرك رأيه تمام الإدراك ، فعاد يقول :

— تريد أن تشرع فى البناء قبل أن تتثبت من صلابة الأرض وقوة احتمالها . إعلم بأن كل شىء فى هذه النفس عماء وبلبلة ، وأن الخطوط الأولى نفسها لم تحدَّد فيها بعدُ . وينبغى تأهباً للشروع ، أن تجمع بعض المشاعر الحسية والذوقية وتحكم الرباط بين أجزائها حتى تستسيغها الفتاة ، كما تجمع الأعواد فى حزمة ، ثم تقدمها إليها فى قالب نغمة أو كلمة تكررها على مسامعها فى إصرار ومثابرة إلى حد المضايقة ، ثم تجتهد حتى تحصل منها على ترديد ما سمعتْ .

وبعد أن شرح هذه الطريقة شرحاً وافياً دقيقاً قال :

— وليس فى هذه الطريقة كما تظن أثر من السحر . إنى لم أخترعها ، وقد لجأ إلى استعمالها كثير غيرى قبل اليوم . ألا تتذكر ؟ أنسيت أن أساتذتنا حينما كنا ندرس الفلسفة معاً حدثونا عن حالة مشابهة لهذه بمناسبة « كوندياك » وتمثاله الحى . . . .

ثم استدرك وقال :

— أو ربما قرأتُ هذا بعد عهد دراستنا فى إحدى مجلات علوم النفس . . . ما علينا ! هـذا الموضوع استرعى كل انتباهى واستحوذ على فكرى جملة حتى أنى ما أزال أذكر اسم الفتاة المسكينة التى لقيها فى منتصف القرن الماضى طبيب من إحدى المقاطعات الإنجليزية التى لا أتذكرها وفرض على نفسه العناية بأمرها . كان اسمها « لورا برِدْجمان » ، وهى أشد بؤساً من

« چرترود » لأنها كانت سجينة الصمم والخرس فضلا عن العمى .
وقد حرر الطبيب مذكرات يومية ، كما ينبغى لك أن تفعل ، سجل
فيها درجات التقدم التى لاحظها على الفتاة ، أو على الأقل بدأ بتدوين
جهوده التى بذلها فى تعليمها . ثابر أثناء أيام وأسابيع فى إصرار
وعزم على أن يجعلها تلمس وتحسس على التعاقب شيئين صغيرين :
دبوساً وريشة للكتابة ، ثم جعلها تحسس على ورقة مطبوعة مما
يستعمل فى تعليم العميان الحروف البارزة لكلمتى : دبوس وريشة .
ولكنه بعد انقضاء أسابيع لم يحصل على أية نتيجة ، وخيل إليه أن
جسم الفتاة غير آهل بنفس ، ومع هذا لم ينطفئ فى نفسه نور الأمل
والثقة . وهو يقول فى مذكراته : « مثلى كمثل إنسان محنى على حافة
بئر عميقة حالكة السواد يحرك الرشاء فيها تحريك اليائس أملاً فى
أن تمسك به يد إنسانية » . وذات يوم ، رأى هذا الوجه الجامد
الخامل يضىء بما يشبه الابتسام البادئ . وإنى أعتقد تمام الاعتقاد
أنه حين امتلأت عينه بهذا المنظر ، تفجرت منها دموع الشكر
والحب ، وخرّ جاثياً يحمد الله على نعمته ، إذ أدركت الفتاة بغتة
ما أراد لها الطبيب : أنها أُنقذت ! منذ ذلك اليوم ، تنبهت وألقت
بالها لما تسمع ، فتقدمت تقدّماً سريعاً ، ولم تلبث أن أكملت
ما يعوزها من المعرفة ، ثم صارت إلى إدارة معهد للعُمى — هذا إذا
لم تخنى الذاكرة وتجعلنى أتحدث عن فتاة غيرها . . . لأن حالات

أخرى مشابهة ظهرت فى الأيام القليلة الماضية وتحدثت عنها الصحف والمجلات طويلاً ، وأعلنت بعضها العجب فى قليل من السخف كما أرى ، وردّد البعض الآخر هـذا العجب لمثل هذه المخلوقات كيف يتسنى لها أن تكون سعيدة . والواقع الذى لامراء فيه أن كل واحدة من هؤلاء المحدودات ما إن تُلقَّن كيف تعبِّر ، حتى تقص أول ما تفعل مبلغ ما تنعم فيه من الهناءة . وطبيعى أن يبتهج الصحافيون إلى حدّ الدهش والذهول بهذه النتيجة ، ويستخلصوا منها درساً لهؤلاء الذين يستمتعون بحواسهم الخمس ولا يتحرجون من إبداء الشكاية والتململ . . .

وهنا قامت بينى وبين « مارتان » مناقشة حادّة ، ثُرْت خلالها بتشاؤمه ولم أقرّ رأيه الذى اقتنصته من بين كلماته ، القائل بأن الحواس لا عمل لها فى الواقع إلا نشر الحزن والتبلبل فى نفوس البشر . . .

فقاطعنى محتجًّا بقوله :

— ليس هـذا ما أقصد إليه . أريد أن أقول فقط إن النفس الإنسانية تتمثل الجمال والرخاء والانسجام فى رضى وسهولة أكثر مما تتصوّر الاختلال والفوضى والخطيئة التى تفسد هـذا العالم فى كل مكان وتدنسه وتمزقه وتلصق به الأقذار . والحواس هى التى تكشف لنا عنها وتساعدنا على إدراكها ، ومن أجل هذا أفضِّل أن

أصل عبارة ڤرچيل : « ما أسعد المزارعين » بالكلمات الآتية :
« لو كانوا يجهلون المصائب التي تلم بهم » على أن أكملها بهذه
الجملة التي نتعلمها : « لو تسنَّى لهم أن يدركوا ألوان النعمة التي يستمتعون
بها » . ما أهنأ الناس لو استطاعوا أن يجهلوا الشر !

ثم حدَّثني عن قصة للكاتب الإنجليزي « ديكنز » ، يعتقد أن
مَثَل « لورا بردچمان » ألهمه إياها ، ووعدني بإرسالها إليّ بعد وقت
وجيز . وبعد انقضاء أربعة أيام تسلمت حقًّا « صرصار البيت »
فقرأتها في لذة قوية عميقة . إنها قصة فتاة ضريرة فيها طول وإسهاب
وتلهب العواطف في بعض المواضع ، نشأها أبوها وهو مستصنع
لُعب رقيق الحال عارٍ من المال ، ورباها في وهم الرفاهية والثراء
والسعادة : وهذا كذبٌ حاول « ديكنز » بفنه أن يلبسه ثوب الخير
والتقى ، ولكني علم الله لن أفزع إلى مثله في تربية « چرترود »
مهما تكن الظروف .

***

لم يكد يدركني اليوم التالي لزيارة « مارتان » حتى شرعت
أجرب طريقته وأطبقها خير ما أستطيع . والذي آسف له الآن أني
لم أدوِّن الملاحظات كما نصح لي عن خطوات « چرترود » الأولى
في هذه السبيل التي يكتنفها الغبش من كل جانب ، حتى أنني
شخصيًا لم أقدها فيها إلا متحسساً مواقع قدمي . وكنت خلال

الأسابيع الأولى فى حاجة إلى صبر قد لا يثبت عليه عقل ، لا من جراء الوقت الذى تتطلبه هذه التربية الأوّلية فحسب ، ولكن أيضاً من جراء اللوم الذى جلبته علىّ . ويؤلمنى القول بأن « أميلى » هى التى صبت علىّ صنوف هـذا التقريع . وإنى على كل حال لم أسجل هذا فى حديثى إلا لأنى لم أحمل فى صدرى أية ضغينة أو انفعال — وأؤكد ما أقول صراحة — فأحاول إخفاءه فى أعماق النفس خشية أن تقرأ امرأتى هذه الأوراق فى مستقبل الأيام (ألم يعلمنا المسيح الصفح عن ضروب الإساءة عقب ضربه مَثَل الشاة الضالة مباشرة ؟) . وأقول فضلاً عما سبق إننى فى اللحظة التى يبلغ فيها ألمى من تأنيبها أقصى غايته ، لا أحقد عليها لامتعاضها من طول الوقت الذى أقفه على « چرترود » . وكل ما أخذته عليها حقًّا أنها لم تكن تثق بأن عنايتى ستنتج أىّ أثر للنجاح المرجو . ولست أنكر أن فقدان الثقة هذا هو الذى آلمنى ، ولكنه لم ينل من عزيمتى أو يُدخل اليأس على نفسى . وطالما سمعتها تقول وتعيد القول « يهون الأمر لو كان من الميسور ، مع ما تبذل من الجد وتفقد من الوقت ، أن تحصل على أية نتيجة ! . . . » وظلت مستيقنة فى إصرار العقل الضيق بأن جهودى تذهب كنفثة فى بحر لجىّ ، فكان من الطبيعى أن تنظر إلىّ نظرتها إلى الخارج على قواعد الأدب واللياقة حين أحبس على هذا العمل وقتاً كان من الأوفق استخدامه فى أغراض أجدى علينا

وأربح لصفقتنا . وفى كل مرة ترانى مشغولا بأمر الفتاة ، تجد وسيلة تذكرنى بها أن شيئاً أو شخصاً مّا فى انتظارى ، وأنى أمنح هـذه الفتاة وقتاً كان من الواجب علىّ أن أهبه أولاداً غيرها .

وإنى أعتقد مستنيراً بما لاحظت ، أن نوعا من الغيرة هى غيرة الأمومة تستبد بنفسها ، لأنى سمعتها غير مرة تقول « إنك لم تشغل نفسك قط إلى مثل هذه الدرجة بأحد من أولادك وهم من صلبك وأقرب الناس إليك ! » . وفى قولها هذا الحق كله ، لأنى مع كلفى الشديد بأولادى ، ما كنت أعتقد أن من المفروض علىّ أن أشغل نفسى بهم أكثر مما ينبغى

ولقد تبين لى فى كثير من الأحيان أن مَثَلَ الشاة الضالة من أصعب الأقوال نفاذاً إلى بعض النفوس وامتلاكا لقبولها . وهذه النفوس على الرغم من ذلك تعتقد أنها متعمقة فى الدين حريصة كل الحرص على اتباع أوامره ، وهى لا تستطيع أن ترتفع بالإدراك فتصدق أن كل شاة من القطيع على حدة يمكن أن تكون بدورها أعز على الراعى وأسمى قيمة عنده من بقية القطيع جملة . وهذه الكلمات « إذا كان لرجل مائة شاة ، وضلت إحداها ، ألا يترك التسعين والتسع الأخرى فوق الجبل فى سبيل البحث عن هـذه الضالة ؟ » أقول إن هذه الكلمات المشرقة بنور الرحمة ، لو جرؤت على إبداء الرأى فيها صراحة تلك النفوس التى أشرت إليها ، لأعلنت

أنها أبعد ما تكون عن جادة الحق والإقساط .

ولكن بسمات « چرترود » الأولى واستنى وقوت رجائى ومسحت ما بى من الألم وعوضتنى من عنايتى بها المختلفة الصور عوضاً كريماً ، إذ أن « هذه الشاة إذا وجدها الراعى ، بعثت فى نفسه فرحا أعظم مما تبعثه التسعة والتسعون الأخرى التى لم تضل قط » . نعم إنى أعلن هذه الحقيقة وأضيف إليها أن ابتسام أى ولد من أبنائى لم يغمر قلبى فى لحظة من اللحظات بمثل هذا الفرح السماوى الذى شعرت به حين رأيت هذه البسمة تلوح ذات صباح على وجه الفتاة الجامد ، وخيل إلىّ أنها بدأت على حين بغتة تفهم وتهتم بما كنت أبذل جهدى من أيام طويلة فى تلقينها إياه .

اليوم الخامس من شهر مارس . لقد سجلت هذا اليوم كأنه تاريخ ميلاد ، لأنى رأيت منها فيه بسمة هى فى الواقع انقلاب وتجلى فى صورة جديدة ، إذ بُعثت أجزاء وجهها فجأة وانتعشت ودب فيها دبيب الحياة . كان هذا أشبه بخطفة من البرق المباغت بماثل الضوء الضارب إلى لون الأرجوان فى جبال الألب العليا ، الذى يسبق بزوغ الفجر ويلتمع مهتزا على قممها المغطاة بالثلوج ، فيعين موقعها ويحسر عنها ظلمة الليل .

وحين رأيت إشراق وجه الفتاة ، تمثل فى نفسى أنه تلوُّن صوفى انتشر فى دخيلتها ، وجعلنى أتذكر ضوء جبال الألب وأتنقل

بالفكر إلى حوض « بتِزْدَا » فى اللحظة التى هبط فيها الملاك وأيقظ فى رفق ماءه الناعس .

استولى علىَّ نوع من الغبطة الحادة الساحرة أمام الهيئة الملائكية التى استطاعت « جرترود » أن تبدو فيها بغتة ، إذ وقع فى وهمى أن ما استضافها فى تلك اللحظة من الإدراك أقل بكثير من المحبة . حينئذ تملكنى نزوع إلى الاعتراف بالجميل ، فانتفضت قائما ووضعت على جبينها الوضَّاء قبلة كانت فى ملتى واعتقادى مهداة إلى الله جلت قدرته آية الحمد والشكر .

* * *

بقدر ما كان الحصول على هذه النتيجة الأولى صعبا قاسيا ، كانت خطوات التقدم بعد ذلك سهلة سريعة . وإنى اليوم أعانى رهقا شديدا وأبذل جهدا عظيما لأتذكر الوسائل التى لجأنا إليها والسبل التى فزعنا إلى سلوكها . وخيل إلىّ فى بعض الأحيان أن « جرترود » تتقدم فى وثبات طوال متتابعة كأنها كانت تقصد إلى السخرية من الطرائق .

وما أزال أذكر أنى أصررت أول الأمر على أن أقدِّم تعرفها بصفات الأشياء على إحاطتها بكثرة أنواعها المختلفة ، فبدأت : بالساخن والبارد والدافئ والعذب والمر والخشن والناعم والشّف . ثم بالحركات : الابتعاد ، الدنو ، النهوض ، التقابل ، الرقاد ، التفرق

التجمع ، الربط ، الحل إلى آخره . . . ولم يكد يمر بعض الوقت ، حتى أعرضت عن كل طريقة ولجأت إلى التحدث إليها من غير أن أهتم كثيراً بالإجابة على هذا السؤال الذى يمر بخاطرى « أترى ذهنها يساير حديثى ويتفهمه ؟ » ولكنى كنت أدعوها وأغريها فى لطف وبطء لتوجه إلىّ ما تشاء من الأسئلة . وليس من شك فى أن عقلها كان يدأب على الحركة والعمل طوال الوقت الذى أتركها فيه تخلو إلى نفسها ، لأنى فى كل مرة أعود إلى محادثتها ، كانت تقدم إلى مفاجأة جديدة وتجعلنى أشعر بأن كثافة الظلمة التى تفصل بيننا أخذت تخف وتتبدد شيئا بعد شىء . وكنت أقول لنفسى «أليس كذلك ينتصر دفء الهواء وجلَد الربيع رويدا على قر الشتاء وقطوبه ؟ » وطالما أعجبت غاية الإعجاب بالطريقة التى يذوب بها الثلج ، وتمثلته كمعطف تبلى بطانته وتتهتك ، ويبقى ظاهره على حاله المألوفة . وكان العجب يتملك « أميلى » فى كل شتاء فتعلن إلىّ « لم يتغير الثلج . يعتقد الإنسان أنه لم يزل متماسك الأجزاء والطبقات على حين أنه كما ترى يتخاذل وينهزم فى مكان يتلوه آخر ، وفجأة يفسح الطريق للحياة فتعود إلى الظهور » .

خشيت أن يعترى السقم « جرترود » ويلازم وجهها الشحوب من قبوعها الدائم على مقربة من المدفأة ، فأردت لها الخروج من حين إلى آخر ، ولكنها ما كانت تقبل أن تستريض إلا متكئة

على ذراعى . وقد أدركت من العجب والخوف اللذين استوليا عليها حين اجتازت عتبة الدار ، أنها لم تخرج إلى الطريق طول عمرها . نعم أدركت هذا من قبل أن تعرف كيف تعبر عنه وتجهر لى به . ولم يكن أحد فى الكوخ الذى انتشلتها منه يعنى إلا بتقديم الطعام إليها وتمكينها من أن تجتنب الموت جوعا ولا أجرؤ أن أقول لتمكينها من أن تعيش . ومن أجل هذا كان عالمها القاتم محدوداً بحوائط الغرفة الوحيدة التى لم تغادرها قط . ولم تكن تغامر بالانتقال إلى عتبتها إلا فى القليل النادر أيام الصيف حين يكون باب الكوخ مفتوحاً يكشف عن الكون الفسيح الساطع .

ولقد قصت علىّ ذات مرة بعد انقضاء ردح من الزمن أنها كانت حين تسمع إلى تغريد الطير فى أعوامها الماضية وتشعر بحرارة الموقد تداعب وجنتيها ويديها ، تحسبهما أثرين خالصين من آثار الضوء ، وكانت تجد من الطبيعى الذى لا شذوذ فيه ، دون أن ترهق الفكر بالدقة على كل حال ، أن الهواء إذا سخن شرع فى الغناء كما يغلى الماء إذا وضع قريباً من النار .

والحقيقة أنها كانت لا تشغل نفسها بأمر ولا تلقى بالها إلى أى شىء ، وظلت تعيش فى ركود عميق حتى جاء اليوم الذى بدأتُ فيه الاهتمام بشأنها . وما أزال أذكر بشرها المتدفق كالسيل الذى لا ينضب معينه حينما عرفت منى أن هذه الأصوات الرقيقة تصدر

عن مخلوقات حية ليس لهـا من عمـل فيما يظهر إلا الشعور بفرح الطبيعة المبعثر المنثّر ، والتعبير عنه بأعذب النغمات (وهى من ذلك اليوم ألفت ترديد هذه العبارة : إنى فرحة كطائر) . ومع هذا فإنها لم تفد من هـذه المعرفة ، بل استولت على نفسها فـكرة أمَضّتها وأقامت الحسرة والكآبة فى نواحيها ، هى أن هذه النغمات والألحان تعبر عن عظمة منظر لا تستطيع أن تتأمله كغيرها من بنى الإنسان قالت لى ذات مرة :

— هل حقيقة أن الأرض رائعة الجمال إلى هذا الحد الذى تتغنى به الطير ؟ لم لا يفصح الناس عنه أكثر مما يفعلون ؟ لماذا لا تحدثنى عنه أنت ؟ أتخشى أن تبعث الألم فى نفسى إذ تعتقد أنى لا أستطيع رؤيته ؟ لست على حق فيما تذهب إليه . إنى أرهف السمع لشدو الأطيار وأعتقد أنى أفهم جيداً كل ما تقول فى لغتها الساحرة .

فأجبتها لأواسيها وأرفه عن نفسها الألم :

— عزيزتى « جرترود » إن هؤلاء الذين يستطيعون رؤية العالم ، يصعب عليهم أن يبلغوا شأوك فى جودة الاستماع إلى غناء الطير .

فعادت تقول :

— لم لا تغرد أنواع الحيوان الأخرى ؟

مثل هـذه الأسئلة كانت فى بعض الأحيان تباغتنى بالدهش

فأظل لحظات ساهم الوجه بادى الاضطراب والحيرة ، لأنها ترغمنى على التفكير فى أشياء كنت إلى ذلك الحين أتقبلها دون أن أجد فيها غرابة تدعو إلى العجب . وكذلك استحوذت هذه الأسئلة على ذهنى وجعلتنى أستنتج للمرة الأولى ، أن الحيوان كلما ازداد ثقله ودنوه من الأرض واشتد تعلقه بها ، ازدادت آلامه واستمرت أحزانه . وهذا ما حاولت أن أشرحه للفتاة ليدخل فى روعها ويثبت عليه عقلها ، ثم حدثتها استكمالاً للشرح عن السنجاب وألعابه ، فلما بلغت هذه النقطة سألتنى هل الطير هى التى انفردت وحدها من بين سائر الحيوان بالتحليق فى الجو ؟ فقلت : كلا . هناك أيضاً الفراشة بأنواعها . فعادت تسأل « وهل تغرد وتصدح ؟ » فأجبت إن لها طريقة أخرى تعبر بها عن فرحها ، وهذه الطريقة مكتوبة على أجنحتها فى قالب ألوان شتى . . . . . ثم وصفت لها ما تمتاز به الفراشة من مختلف النقوش والوشى فى إسهاب ودقة .

* * *

٢٨ فبراير

أعود بالرواية إلى الخلف قليلاً ، لأنى أرخيت بالأمس العنان لنفسى ، فحق علىّ اليوم أن أجىء بالحديث على سرده وأرجع به إلى مساقه .

كان علىّ ، لكى أعلّم « چرترود » حروف الهجاء الخاصة بالعُمى

أن أتعلمها قبل الشروع فى إلقاء الدروس ففعلت . ولكن الفتاة لم تلبث أن تفوقت علىّ وصارت أكثر منى سرعة ومهارة فى قراءة هذه الكتابة التى كنت أجد صعوبة أليمة فى استنطاقها ، وأتتبع حروفها فضلاً عن ذلك بعينى فى رضى وراحة أكثر من تتبعها بأصابعى . وعلى كل حال لم أكن الشخص الوحيد الذى يعلمها ، وكنت سعيداً مبتهجاً أول الأمر بأن أجد إنساناً يعاوننى على القيام بهذا الضرب من العناية ، حتى أستطيع أداء أعمالى الكثيرة المرهقة فى أنحاء المقاطعة ذات البيوت المبعثرة المتباعدة التى ترغمنى زيارة المرضى والمعوزين من أهلها فى كثير من الأحيان على قطع آماد بعيدة مضنية .

وجد ابنى « چاك » طريقا إلى كسر ذراعه أثناء استراضته ذات يوم من أيام العطلة فى عيد الميلاد عقب مجيئه لتمضيته معنا — وكان قد عاد منذ زمن إلى (لوزان) التى أكمل فيها دروسه الابتدائية ، ودخل كلية أصول الدين فيها .

ومن حسن الحظ أن الكسر لم يكن بذى خطر ، ولما استدعيت الطبيب « مارتان » فى الحال ، استطاع أن يعالجه بغير حاجة إلى جرّاح ، ولكن الحيطة اللازمة فى مثل هذه الحال أرغمت « چاك » على البقاء فى البيت أياماً لا يبرحه . وعلى حين بغتة بدأ يعطف على « چرترود » ويهتم بمساعدتى فى تعليمها القراءة ، وقد

كان إلى ذلك الحين لا يكاد يشعر بها أو يأخذها ببصره .

لم يستمر تعاونه معي إلا الفترة الضرورية لنقهه واستكمال صحته ، أي ما يقرب من ثلاثة أسابيع تقدمت أثناءها « جرترود » تقدماً ملموساً يستدرّ الإعجاب وأظهرت غيرة خارقة للمألوف فى تعشق الدروس والانكباب على استذكارها ؛ فكأن هذا الإدراك الذى كان إلى الأمس القريب غارقا فى الخمول قابعًا فى الجمود ، لم يكد يسير بعض خطوات حتى طفق يعدو من قبل أن يعرف المشى ويتقنه . ولشد ما أعجبت بالصعوبة الضئيلة التى تلاقيها فى إيجاد الصيغة الملائمة لأفكارها ، وبالسرعة التى تصل بها إلى التعبير عن الأشياء التى نعلمها معرفتها أو التى نحدثها عنها ونصفها لها حين نعجز عن وضعها فى متناول إدراكها مباشرة ، إذ أننا كنا نستخدم دائمًا كل ما يمكن أن تلمسه أو تشعر به فى شرح ما لا تستطيع الوصول إلى معرفته من طريق اللمس أو الشعور ، سيراً على منوال « عدّادات المسافات » ، وطريقتها فى التعبير لم تكن صبيانية ، بل ناضجة صحيحة ، ولكنها كانت تستعين بأكثر التراكيب ظرفا وأشدها بعداً عما ننتظر ونألف لتبرز الفكرة فى أجلى الصور وأوضح الأشكال .

وإنى أعتقد أن من العبث ذكر الدرجات الأولى التى قطعتها هذه التربية لأنها تماثل ما يصادَف فى تعليم العمى جميعاً . ودليلى

على ذلك أن كل مدرس يقع فى الارتباك عينه حين يعرض لمسألة الألوان مع كل ضرير (وفى هذا الظرف أرى لزاماً علىَّ أن أقول: إن الألوان لم تُذكر فى أى مكان من الإنجيل). ولست أدرى كيف ظهر غيرى من المعلمين على هذه الصعوبة، ولكنى من ناحيتى بدأت بأن أسمى لفتاتى ألوان المنشور وفقاً للترتيب الذى يقدمه إلينا قوس قزح.

ولم أكد أفعل هذا حتى نشأت فى ذهنها حيرة وقام فيه اختلاط بين اللون والضوء، ولاحظت أن مخيلتها لا تصل إلى التمييز بين نوع الفروق الدقيقة وبين ما يسميه المصورون فيما أعتقد «القوة أو القيمة أو المدى». وقد لقيتُ رهقا شديداً فى فهم هذا الموضوع: إن كل لون بدوره يجوز أن يكون له درجات مختلفة فى مبلغ القتامة مثلا، وأن من المستطاع أن تمتزج الألوان جميعاً فيما بينها إلى ما لا نهاية. ولما فهمت ما أقول، ملك عليها الموضوع مشاعرها واستأثر بإعجابها الشديد، فكانت لا تنى عن العودة إليه والكلام فيه.

وشاءت المصادفة بعد ذلك أن أذهب بها إلى مدينة (نيوشاتل) حيث استطعت أن أدخل على نفسها مسرة جديدة، هى حضورها حفلة موسيقية تستمع فيها إلى مختلف الألحان والنغمات. وانتهزت فرصة الدور الذى تقوم به كل آلة فى «السمفونية» لأعود إلى الحديث فى موضوع الألوان، فنبهت «جرترود» إلى أنواع الرنين

المختلفة التي تصدر عن الآلات النحاسية والخشبية ذات الأوتار ، وشرحت لها أن كل واحدة من هذه الآلات تستطيع أن تردد على طريقتها في شدة من الصوت تختلف ارتفاعا وانخفاضاً جميع نغمات السلم الموسيقى ، من أشدها غلظا إلى أكثرها حدة . ثم سألتها أن تتمثل لنفسها على هذا المنوال في الطبيعة ، أن اللونين الأحمر والبرتقالي يتناسبان مع رنين الصور والبوق ذي الأنبوبتين ، واللونين الأصفر والأخضر مع رنين الكمان والربابة الكبيرة (الفيولونسل) والبمُ (أي الكمان الكبيرة) ، واللونين البنفسجي والأزرق يمثلهما في الألحان مايصدر عن الناى والزمّارة والأرغول . ولم أكد أفرغ من قولي هذا ، حتى امتلأ صدرها بنشوة الفرح فقضت على ما فيه من شكوك ، وانطلقت تقول وتكرر : « ماأجمل هذا ! لا بد أن يكون رائعاً خلابا ! »

وبعد قليل قالت على حين بغتة « ولكن خبرني . . . واللون الأبيض ؟ لم أفهم بعدُ أي شيء يشبه هذا اللون . . . »

وفي الحال أدركت مبلغ ما في المقارنة التي استصرختها من الوهن ، ثم حاولت أن أجيب فقلت :

— اللون الأبيض هو الحد الأعلى الذي تختلط عنده جميع الألحان والطبقات الموسيقية كما أن اللون الأسود هو حدها الداجن أو الأسفل .

ولكن هذا الشرح لم يرضنى ولم يقنعها ، فنبهتنى على الفور إلى أن الآلات الخشبية والنحاسية وأنواع الكمان تظل نغماتها واضحة مميزة فى حالتى غلظ الصوت وحدته .

اختلط علىّ الأمر وأخذنى العى والحيرة ، كما وقع لى معها فى كثير من الأحيان والظروف ، ثم بحثت فى طيات عقلى عن مقارنة أستعديها على ارتباكى فقلت بعد لأى :

— إذن إصغى إلى : تصورى اللون الأبيض كأنه شىء نقى لا لون له ، ولكن فيه نوراً فقط ، واللون الأسود على النقيض من ذلك ، كأنه شىء مثقل باللون فى جميع أجزائه إلى حد الظلمة . . . .

وإنى لا أسجل هنا هذه الأطرف من الحديث المتبادل بيننا إلا لأبيِّن مَثَلا من المصاعب التى عثرت بها كثيراً .

ومن المزايا الجميلة التى تتحلى بها « جرترود » أنها لا تدعى الفهم مَيْناً كما يفعل كثير من الناس إذ يزحمون أذهانهم بفروض وقضايا خاطئة أو تفتقر إلى البحث والتمحيص ، فينتج عن هذا أن تكون حججهم وثمرات فكرهم مهلهلة فاسدة تتخللها العيوب من كل جانب ؛ أما هى فكانت تظل أليفة الضيق والقلق ، ما دامت لا تصل إلى تكوين فكرة واضحة عارية من اللبس والغموض عن أى تصور ذهنى . ومن أجل هذا ازدادت الصعوبة التى ألاقيها ، لأن معنى الضوء كان متصلا فى عقلها اتصالا وثيقاً بمعنى الحرارة ، فبذلت

غاية الجهد وعانيت أشد الألم حتى استطعت أن أقطع هذه الصلة القائمة خطأ بين مسميين متباينين .

وكذلك كنت أجرب خلالها بغير انقطاع مبلغ الاختلاف بين العالم البصرى وعالم الأصوات ، وأرى إلى أى مدى تكون عرجاء كل مقارنة يحاول الإنسان أن يستخلصها من أحد العالمين لإيضاح العالم الآخر .

***

٢٩ فبراير

ألهتنى المقارنات وعاقتنى عن ذكر الفرح الوفير الشامل الذى بعثته فى نفسها حفلة « نيوشاتل » الموسيقية ، حيث كان الفنانون يعزفون على وجه التحقيق « السمفونية الريفية » . وأقول على وجه التحقيق ، لأنى لو تمنيت أن أسمعها لحنا ، لما تمنيت خيراً من هذا ، والسبب سهل الفهم لا يعوزه الإيضاح . وبعد أن غادرنا مكان الحفلة بوقت طويل ، ظلت « چرترود » صامتة وكأنها غارقة فى الدهش والنشوة . ولما استفاقت قليلا ، سألتنى :

— أصدقنى القول ، هل ما تراه ويقع تحت بصرك جميل حقا مثل هذا ؟

— جميل مثل ما ذا يا عزيزتى ؟

— مثل « هذا المنظر على حافة الغدير » .

تريثت فى الجواب ، إذ هدانى الفكر إلى أن هذه الألحان والنغمات المستبهمة التى يصعب بيانها ، تصور العالم ، لا كما هو فى الواقع ، ولكن كما كان من المستطاع أن يكون ، وكيف يكون إذا خلا من الشر والخطيئة . ولم أكن إلى ذلك الوقت قد جرؤت على التحدث إلى « چرترود » فى شأن الخطيئة والشر والموت .

ولما خفت أن يثقل عليها صمتى ، قلت :

— إن الذين يبصرون ، لا يدركون سعادتهم .

فصاحت على الفور قائلة :

— ولكنى أنا التى لا أملك نور العين ، أدرك سعادة السمع .

ثم التصقت بى ونحن سائران وأحسست بجسمها الرخص يثقل فى رفق على ذراعى كما يفعل الأطفال الصغار . وبعد هنيهة قالت :

— سيدى الراعى ، أتشعر بمبلغ سعادتى ؟ لا ، لا . . . إنى لا أجهر بهذا مجاملة لأدخل على نفسك السرور . أنظر إلىّ . ألا تبدو الحقيقة فى أسارير الوجه حين ينطق الإنسان بغيرها ؟ تستطيع أنت أن تراها ، أما أنا فإنى أدركها من الصوت . أتذكر يوم أجبتنى بأنك لم تبك يوم أنبّتك خالتى (هكذا كانت تسمى امرأتى) على أنك لا تعرف أن تقوم لها بأى عمل ؟ لقد صحتُ فى وجهك : سيدى الراعى ، إنك تكذب ! أوه ! لقد شعرت ببكائك فى الحال ، وأدركت من نبرات صوتك أنك تخفى عنى الحقيقة . لم أكن فى حاجة إلى

لمس خديك لأعرف أن عبراتك كانت تسيل عليهما من عينيك .

ثم كررتْ هذه الجملة بصوت مرتفع : « نعم لم أكن فى حاجة إلى لمس خديك » .

صعد الدم إلى وجنتيّ حين رنت هذه الكلمات فى أذنى ، لأننا كنا لا نزال فى المدينة ، وكان بعض السابلين يلتفتون إلينا فى الفينة بعد الفينة . ومع هذا استمرت فى حديثها :

— لا تحاول أن تضرب من حولى سياج الوهم والغرور ، لأن من الجبن أن يخدع الإنسان فتاة ضريرة . . .

سكتت قليلا وقالت ضاحكة :

— ثم لأن هذه المحاولة لا تجدى ولا تنل منى ما ترمى إليه . خبرنى يا سيدى الراعى ، إنك لست تعساً ، أليس كذلك ؟

تناولت يدها ورفعتها إلى شفتى ، كأنما أردت أن أشعرها فى صمت يجنبنى الاعتراف ، بأنى مدين لها بجزء من سعادتى ، ثم أجبت خلال هذه الحركة :

— كلا يا «چرترود» ، كلا لست تعساً . وكيف أكون كذلك ؟

— ومع هذا تبكى فى بعض الأحيان .

— نعم بكيت .

— ألم تبك منذ ذلك اليوم الذى ذكرتك به ؟

— كلا ، لم ينهل دمعى منذ ذلك اليوم .

— وهل لم تعد تميل إلى البكاء ؟

— كلا يا « چرترود » .

— وهل . . . . . شعرت فى الأيام الماضية بالرغبة فى كتمان الحقيقة عنى ؟ تكلم ولا تنكر .

— كلا يا ابنتى العزيزة .

— أتعدنى أن لا تتلمس السبل إلى خديعتى ؟ أتستطيع ؟

— لك حكمك وبين يديك وعدى .

— جميل هذا . أجبنى على الفور : أجميلة أنا ؟

بُهت عند سماع هذا السؤال المباغت ، إذ لم أشأ حتى ذلك الوقت أن ألقى بالى إلى جمال « چرترود » الذى لا ينكر ، وكنت أرى فضلا عن ذلك من العبث المحض أن يشعرها أحد بما هى عليه من حسن وروعة .

ولما تمالكت نفسى سألتها :

— ولماذا تهتمين بمعرفة ذلك ؟

— إن هذا الموضوع هو همى الذى يجتال فى ذهنى ويعتلج بين جنبى . أريد أن أعرف أنى . . . . كيف تعبر أنت ؟ . . . . أنى لست لحناً شاذا فى السمفونية فكيف ترى ؟ إلى من غيرك أوجه السؤال يا سيدى الراعى ؟

فأجبتها لأدافع عن نفسى جهد المستطيع :

— إن رجل الدين لا يحفل بجمال الوجوه ولا تسترعى انتباهه روعة القسمات ء

— ولماذا ؟

— لأنه يجد فى جمال النفوس الغَنَاء كله .

فقالت وقد زمت شفتيها فى حركة غضب ساحرة :

— إذن تفضل أن يلهمنى صمتك الاعتقاد بأنى دميمة الخلقة قبيحة التكوين .

لم أستطع صبراً بعد هذا فصحت قائلا :

— « جرترود » تعلمين حق العلم أنك جميلة .

فلزمت جانب الصمت وغشت وجهها سحابة من الجد لم تفارقه حتى عدنا إلى البيت .

* * *

لم نكد نعود حتى استقبلتنا « أميلي » بفتور وجهومة ووجدت الوسيلة التى تشمرنى بها أنها تستهجن ضياع اليوم على هذه الصورة . وكان فى وسعها أن تنصح لى بما ترى قبل أن نخرج ، ولكنها رأتنا نغادر المنزل فلم تقل كلمة نستشف منها مضمر طويتها شأنها فى كل حين وحال ، لتحتفظ بالحق فى توجيه اللوم حين يحلو لها أن تفعل .

وهى فى الحق لم تلجأ فى التأنيب إلى الكلمات ، ولكنها

اقتصرت على الصمت البليغ الناطق بالاتهام الأليم . ألم يكن من الطبيعي ، وهي تعرف أني ذاهب « بجرترود » إلى حفلة موسيقية أن تسألنا عما سمعنا ، وأن ترى الفرح المترقرق في وجه الفتاة وتدرك أنه يزداد ويعظم حين تشعر من جانبها بأقل اهتمام بأسباب غبطتها ؟

ولكن « أميلي » لم تصبر على الصمت طويلا ، فشرعت بعد قليل تتكلم . وخيل إليها أنها لكي تشرب أقوالها في هذا المقام بعض الرقة والحنان ، ينبغي ألا تحدث إلا عن أشياء تافهة واهية الرباط . ولما فرغنا من العشاء وذهب الأولاد إلى مضاجعهم ، انتبذتُ بها ركناً من الغرفة حتى لا تسمع الفتاة إلى حديثنا وسألتها في حدة وخشونة .

— أكدّر صفو مزاجك أني ذهبت « بجرترود » إلى الحفلة الموسيقية ؟

فأجابت بلا تردد كأنما كانت تشرئب إلى السؤال :

— إنك تعمل لها ما لا ينتظر أن تعمله لأحد من أبنائك .

وهذا هو دائماً محور الشكاية ووجه التظلم ، وهو الذي يلهمها في عناد وإصرار رفض الاقتناع بأن من عادة الإنسان أن يحتفل بالطفل العائد وليس بالأطفال المقيمين ، وفقاً لدلالة المثل الذي ضربه المسيح . وآلمني فضلا عن هذا أنها لا تقيم وزناً لعاهة « بجرترود » التي لا يمكن أن تتطلع بالأمل إلى متعة أخرى غير الاستماع إلى

الموسيقى . وإذا كانت العناية الإلهية قد هيأت لى أسباب الفراغ فى ذلك اليوم على غير المألوف لـكثرة الأعمال التى تتطلب منى سرعة الإنجاز فى الخارج ، فليس هذا سبباً يبرر لوم « أميلى » الجائر . يضاف إلى ذلك أنها تعلم علم اليقين أن كل واحد من أولادى لديه عمل يؤديه أو تقعده عن الخروج ملهاة ومشغلة ، وأنها هى نفسها لا تتذوق الموسيقى ولا يمكن أن تمر ببالها فكرة الذهاب إلى حفلة من هذه الحفلات الفنية مهما يتح لها من الفراغ ، ولو أقيمت على عتبة الباب .

ومما زاد فى حزنى أن «أميلى» جرؤت على التفوه بكلماتها الموجهة أمام « جرترود » . ومع أنى ملت بها إلى ركن من الغرفة ، إلا أنها رفعت صوتها حتى بلغ مسامع الفتاة .

شعرت حينئذ فى أغوار نفسى بسخط شديد طغى على ما فيها من الحزن والاكتئاب . ولما غادرت امرأتى المكان بعد قليل من الوقت دنوت من « جرترود » وتناولت يدها الهزيلة ورفعتها حتى لامست وجهى وقلت لها :

— أترين ؟ لم أبك هذه المرة .

فأجابتنى وهى تحاول أن تبتسم لتسرى عنى بعض ما بى :

— نعم لم تبك أنت . . . إنه دورى هذه المرة .

وتطلع وجهها الجميل إلىّ ، فرأيته قد غمرته الدموع .

***

٨ مارس .

كل ما أستطيع إهداؤه إلى امرأتى من المسرة هو أن أتجنب فعل ما يثير السخط فى صدرها . وأمارات الحب السلبية المحض هى التى تأذن لى فى إظهارها دون سواها . فإلى أية درجة ضيقت الخناق على حياتى وحصرتها فى أضيق نطاق ! هذا ما لا تستطيع أن تقدره ولا يقع لها فى حسبان ! ولشد ما أتمنى أن تسألنى أداء عمل تهول النفس صعوبته ! إنها لو فعلتْ لنهدتُ لأشق الأعمال وأعظمها خطراً ، ولكنها غريبة الطبع ، وكأنى بها تعاف كل ما هو خارج عن الأوضاع المأثورة ، حتى أن التقدم فى حياة البشر ليس فى ملتها إلا إضافة أيام متشابهة الصور والألوان إلى أمثالها الماضية . وهى من أجل هذا لا تتمنى ، بل لا تقبل أن ترى منى فضائل جديدة ، ويدفعها الغلو فى هذا المضمار إلى النفور الشديد من أن ترى الفضائل المتعارفة تنمو وتزدهر . وفضلا عن ذلك تنظر بعين القلق ، إن لم يكن بعين السخط والغضب ، إلى أى جهد تبذله كل نفس تروم أن ترى فى المسيحية شيئاً آخر غير استئناس الغرائز .

ولم أزل أذكر أنى ذهبت ذات يوم إلى « نيوشاتل » ونسيت أن أمر ببائعة الخردوات التى تتعامل معها لأؤدى ما لها فى ذمتنا ، وأبتاع علبة خيط كما طلبت منى « أميلى » عند مبارحة البيت .

خفت النتائج التى قد تستخلصها من هذا النسيان الذى آلمنى وجعلنى أشعر باستياء من نفسى أكثر درجات من الذى توقعت أن يستولى عليها ، وعلى الأخص لأنى عاهدت نفسى على إنفاذ ما طلبت واضعاً نصب عينى أن الوفى فى صغائر الأمور يكون كذلك فى الكبير منها والخطير . ولست أغالى إذا قلت إنى تمنيت أن توجه إلىّ بعض اللوم ، لأنى كنت أستحقه فى هذا الظرف دون ريب ، ولكن الشكاية القائمة على الوهم والخيال طغت فى نفسها على التهمة الصريحة المحكمة ، كما يحدث فى أغلب الأحيان . آه ! ما كان أجمل الحياة ، وما كان أخف عبء البؤس الذى نحتمله ، لو كنا نرضى و نقنع بالآلام الحقيقية الكائنة دون أن ننصت لأطياف عقلنا ومردته . . .

ولكن مالنا ولهذا ! لقد استرسلت فى الحديث وكدت أدون هنا ما هو أقرب إلى أن يكون موضوع عظة دينية (إنجيل متّى إصحاح ١٢ آية ٢٩) « لا تدع للقلق سبيلا إلى نفسك » .

أعود الآن إلى جوهر الموضوع الذى اعتزمت أن أسرده ، وهو تاريخ يبين نمو « جرترود » الفكرى والخلقى .

كنت أرجو أن تتهيأ لى الأسباب التى تعيننى على تسجيل

هـذا النمو وتطوره خطوة خطوة ، وبدأت برواية ما يمس هذا الموضوع من التفاصيل . ولكن عاقنى عن إتمام ما أردت أن الظروف لم تمنحنى من الفراغ ما يكفى فى تدوين جميع الوجوه والنواحى بالدقة المطلقة ، وأن من العسير علىّ اليوم أن أوفق إلى التسلسل المحكم الذى يتطلبه الترتيب والمنطق .

دفعتنى قصتى دفعاً فجعلتنى أقدم فى الذكر والتسجيل آراء تولدت فى ذهن « جرترود » من خلجات نشأت فى نفسها ومحادثات جرت بيننا كان ينبغى أن يتأخر موضعها من الرواية حرصاً على توخى الضبط فى السرد ، وكل إنسان ستتيح له المصادفة قراءة هذه الصحائف ، سيتملكه الدهش من غير شك حين يجد الفتاة تعبر بعد وقت قصير عما تحس بمثل هذه الدقة وتفكر فى مثل هـذا الإحكام .

وفى الحق كان تقدمها سريعاً يحير العقول ويبعث فى النفس إكباراً مشوباً بالذهول : وطالما أعجبنى كيف كان إدراكها يختطف فى نهم شديد ما أقدمه إليها من الغذاء العقلى وما تستطيع الاستيلاء عليه منه ، وكيف كانت تبذل الجهد المتواصل حتى تلائم بينه وبين نفسها وتنضجه تمام النضج ثم تهضمه سهلا سائغاً كأنه لم يكن طريفاً ولا غريباً . وكانت تلاحق فكرى بغير انقطاع وتسبقه فتخلف فى نفسى الدهش الشديد . وكثيراً ما كنت ، من درس

إلى درس ، أكاد أنكر تلميذتى وأحسبها شخصاً آخر لم أعرفه من قبل .

وفى نهاية أشهر قليلة ، لم يعد يبدو عليها أن إدراكها عانى الركود طوال الأعوام الماضية . وقد أظهرتْ بعد هذه الفترة الوجيزة على غير المألوف ، من الحكمة ما لا تظهر الكثرة من الفتيات اللاتى يشتت العالم الخارجى أفكارهن وتستأثر شتى البلابل الواهية بخير انتباههن . وفوق ذلك كانت فيما أعتقد أكبر سنا بدرجة محسوسة مما اعتقدنا أول الأمر . ولما تبين لى بالملاحظة أنها تفيد من العمى وتحيل مرارته إلى مصدر عذب تستق منه المنفعة ، ملت إلى الاعتقاد بأن عاهتها قد تكون من جملة نواحى نعمة أُسبغت عليها . وعلى الرغم منى قارنتها « بشارلوت » . ولما كنت فى بعض الأحيان أساعد ابنتى فى استذكار دروسها ، كنت أرى ذهنها يتلهى بأضعف الهوام السابحة فى فضاء المكان ، فأقول لنفسي : « مهما أقلب الأمر على وجوهه ، أجد أنها لو كانت لا ترى ما حواليها من الأشياء ، لأصغت إلىّ خيراً مما تفعل ! » .

لست فى حاجة إلى القول إن « جرترود » كانت كلفة أشد الكلف بالمطالعة ، ولكنى كنت حريصاً على أن أصاحب فكرها جهد المستطاع ، ومن أجل هذا كنت أفضل أن لا تقرأ كثيراً ، أو على الأقل أن لا تكثر من القراءة بمفردها وفى غيبتى ، وعلى

الأخص فى الكتاب المقدس ، وهذا يبدو غريباً أن يصدر عن بروتستانتى .

سأبين ما استبهم فى هذه النقطة . ولكن قبل أن أعرض لهذا الموضوع الخطير ، أريد أن أسرد حدثاً صغيراً يتصل بالموسيقى وينبغى أن أضعه فى قصتى ، إذا لم تخدعنى الذاكرة ، بعد حفلة « نيوشاتل » بزمن قصير .

أقيمت هذه الحفلة كما أعتقد قبل العطلة الصيفية التى أعادت إلينا « جاك » بثلاثة أسابيع . وأثناء غيبته كنت كثيراً ما اجلس « جرترود » أمام أرغن كنيستنا الصغيرة الذى تختص به عادة الآنسة « دى لا . م . . . » ، وهى التى تقيم الفتاة عندها فى الوقت الحاضر (بالنسبة للزمن المساير لحوادث القصة) .

لم تكن الآنسة « لويز دى لا . م . . . » قد شرعت إلى ذلك الوقت فى تعليمها الموسيقى ، وعلى الرغم من حبى لهذا الفن ، فإنى ضعيف الدراية به ، وكنت أشعر بأنى لا أملك من الكفاية والجدارة ما يؤهلنى لأن أعلمها شيئاً ألبتة ، وتوكد هذا الشعور لما جلست حذوتها لأصاحب أصابعها على المعزف ، إذ قالت بعد لحظات من الشروع فى العزف :

— كلا .. أرجو أن تدعنى .. إنى أفضل أن أتدرب بمفردى .

لم يسعنى إلا أن أغادرها عن طيب خاطر ، لأن البيعة من ناحية

مكان مقدس يتطلب التوقر والاحتشام ويفرض الإجلال والاحترام فلا يصح أن ألبث معها فيه منفردين ، ثم لأنى من ناحية أخرى كنت أخشى همسات الناس ولغطهم — مع أنى كنت أجتهد عادة فى ازدراء القَالَة وتجاهل أمرها — ولكن الشُّبَه قد تطير فى هذا الظرف من حول الفتاة وترجمها الظنون أيضاً ، وهذا ما كنت أحاول اتقاءه جهد الطاقة .

وكلما كنت أخرج لأداء الزيارات التى يفرضها علىّ الواجب وتكون مواضعها قريبة من الكنيسة ، كنت أستصحب الفتاة معى إليها وأتركها فيها تنتظر الساعات الطوال فى كثير من الأحيان حتى أنجز أعمالى وأعود إليها فنأخذ سمتنا إلى البيت معاً . وهى لكى تتجنب الملل ، كانت تشغل نفسها فى صبر وجلد باستكمال ما لم تعرفه من النغمات ، فكنت إذا رجعت إليها فى المساء ، رأيتها شديدة اليقظة والانتباه أمام لحن من الألحان يغمرها بفيض طويل الأجل من نشوة الغبطة وسحر الجذل ..

منذ ستة أسابيع أو تزيد قليلا ، وكان ذلك فى الأيام الأولى من شهر أغسطس ، أبلغت « جرترود » البيعة وذهبت لمواساة أيِّم عجوز لم أجدها فى دارها ، فعدت أدراجى على الفور لأقود الفتاة إلى البيت ، ولم تكن تنتظر أوبتى بمثل هذه السرعة . ولشدّ ما استحوذ علىّ الدهش وأخذتنى هزة المفاجأة حين رأيت ابنى « جاك » معها .

لم يشعر كلاهما بدخولى ، لأن الصوت الذى نشأ عن خطواتى كان ضعيفاً طغت عليه نغمات الأرغن فأخفتـه . وليس من طبعى التجسس واستراق السمع ، ولـكن كل ما يمس « جرترود » يملك علىّ قلبى ومشاعرى .

سرت حينئذ على أطراف أصابعى حتى لا يحدث وقع أقدامى أى صوت ، وصعدت متسللا على درجات السلم القليلة المؤدية إلى المنبر حيث أستطيع الملاحظة على خير وجه ، وأقول هنا اعترافاً بالحق ، أننى لم أسمع من أحدهما أو كليهما طوال المدة التى لبثتها فى مَرْصَدِى كلمة نابية لا يصح أن تقال فى حضرتى ، ولـكن « چاك » كان واقفاً أمامها ورأيته مرات متعددة يتناول يدها وينقل أصابعها على أصابع المعزف ، فقلت فى نفسى : « أليس غريبا أن ترضى من « چاك » بما رفضت قبوله منى ؟ » كان دهشى وألمى من الشدة بحيث لم أجرؤ على الاعتراف بهما لنفسى ، ولم ألبث إلا قليلا حتى اعتزمت التدخل ، ولـكنى لم أكد أشرع فى إنفاذ ما انتويت ، حتى رأيت « چاك » يخرج من جيبه ساعته على حين بغتة ، ويقول .

— حان الوقت . ينبغى أن أذهب ، فإن أبى على وشك أن يعود

رأيته حينئذ يرفع يدها الراضية المستسلمة إلى شفتيه ، ثم يندفع نحو الباب . انتظرت لحظات حتى أطمئن إلى خروجه ، ثم نزلت على السلم فى خفة وحذر وفتحت باب البيعة وقصدت إلى أن تسمع

الفتاة صوته حتى تعتقد أنى آت من الخارج ، ثم بادرتها بقولى :

— چرترود !! أعلى استعداد أنت للعودة ؟ وكيف حالك مع الأرغن ؟

فأجابت بصوت طبيعى لا تشوبه شائبة من القلق أو الانفعال :

— نعم على أتم استعداد . لقد حصلت اليوم حقا على بعض التقدم .

تضيّقَ قلبي حزن يرفضُ له صبر الصبور ، ولكن أحداً منا لم ينطق بكلمة تمس الحادث الذى فرغت الساعة من ذكره ، لا صراحة ولا تلميحاً .

***

كنت أشعر برغبة ملحة فى مقابلة « چاك » على انفراد ، وكان من عادة امرأتى و « چرترود » والأولاد أن يتركونى معه بعد العشاء نغرق الوقت فى الكتب حتى يستوهن الليل .

انتظرت هذه اللحظة فى لهفة مشتهاة حتى حانت ، ولكنى قبل أن أخاطبه شعرت بوجيب أليم فى القلب وعواطف شديدة الاضطراب ، فلم أدر كيف أجرؤ على فتح باب الحديث فى الموضوع الذى كان يقلقنى أشد القلق .

وإنى لفى حيرتى هذه ، إذا هو ينقذنى فجأة من مأزق الصمت فيعلن إلىّ عزمه على تمضية العطلة الصيفية كلها معنا . وكان قبل

ذلك ببضعة أيام قد حدثنا عن رحلة إلى جبال الألب العليا يعتزم القيام بها ، فلقى منى ومن أمه أحسن القبول وأجمل الموافقة ، وكنت أعرف أن صديقه « ت » الذى اختاره رفيقا فى سياحته ، ينتظره مؤمنا بقدومه إليه ، فلما أعلن إلىّ عزمه على البقاء معنا ، ظهر لى جليا أن هذا التغيير لا يخلو من صلة وثيقة بالمنظر الذى فاجأته بالكنيسة .

أخذنى أول الأمر سخط شديد ، ولكنى خفت ، إن أنا استقدت له ، أن يغلق ابنى قلبه من دونى ويحكم رتاجه إلى الأبد ، ثم خشيت أن ينطلق لسانى بكلمات جارحة تستوجب الأسف ، فبذلت جهداً عظيما حتى استطعت أن أمسك على ما فى نفسى ، وقلت فى صوت حاولت وسعى أن أخرجه طبيعيا :

— كنت أعتقد أن « ت » يعتمد على وفائك بكلمتك .

— أوه ! إنه لا يعتمد علىّ فى الرحلة اعتمادا مطلقاً . وهو على كل حال لن يصعب عليه اختيار صديق آخر يحل محلى . إنى أجد هنا الراحة التامة كما أجدها فى « أوبرلاند » وأعتقد حقا أنى أستطيع استخدام وقتى خيراً من المرح فى الجبال .

— أى أنك وجدت هنا بعد البحث ما يشغلك .

حدق فى وجهى ، إذ أدرك أن صوتى ينم عن بعض التهكم

والسخرية ، ولكنه لم يتبين السبب ، فعاد يقول فى هيئة طلقة :

— إنك تعرف أنى أفضل دائما الكتاب على المرح فى الجبال

فألقيت عليه بدورى نظرة نافذة ، وأجبت :

— نعم يابنى . ولكن ألا تعتقد أن مصاحبتك لدروس الأرغن تفضل القراءة بكثير عندك ؟

صعد الدم إلى وجنتيه وأحس به ، فوضع يده أمام عينيه كأنما يريد أن يجنبهما ضوء المصباح ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وقال فى صوت كنت أتمنى أن يكون مشوبا ببعض الاضطراب :

— لا تسرف فى اتهامى يا أبى . كان فى نيتى أن أنفض لك جملة حالى ولا أكتمك شيئا من بنات صدرى ، ولكنك سبقت بلحظات قلائل الاعتراف الذى كنت مستعدا للجهر به .

كان يتكلم فى طلاقة وترتيب كما يقرأ الإنسان فى كتاب ، ويختم جمله فى هدوء كأن الأمر لا يمسه من قريب أو من بعيد .

أوغر صدرى ضبط النفس الذى أبداه ، وملأه غيظا وغضبا ، وشعر بأنى على وشك أن أقاطعه ، فرفع يده كأنما يريد أن يقول : كلا . تستطيع أن تتكلم بعد أن أفرغ من حديثى . ولكنى أمسكت بذراعه فى هزة قوية وصحت قائلا وقد أخذتنى الحدة :

— أفضل عندى أن لا يقع بصرى عليك بعد اليوم من أن أراك تُدخل الاضطراب على نفس «جرترود» الوادعة النقية !

لستُ فى حاجة إلى اعترافك ! إن استغلال العاهة والبراءة وسلامة الطويّة وصفاء السريرة ، لؤم لم أكن أعتقد أنك تنحط إلى دركه طيلة عمرك . ومع هذا تخاطبنى فى مثل هذا التبجح وهذه الصفاقة ! إصغ إلىّ جيداً : إن « چرترود » أمانة فى عنقى ولن أتحمل بعد اليوم أن تخاطبها أو تمسها أو تراها .

فأجابنى فى تلك اللهجة الهادئة التى استثارت غضبى :

— ولكن ثق يا أبى كل الثقة بأنى أحترم « چرترود » كما تحترمها أنت بلا أدنى فارق . وإنك تلصق بى أفظع تهمة وتوجه إلىّ أبشع إهانة إذ ظننت أن فى سلوكى أو فى مضمر قلبى نفسه شيئاً معيباً يستوجب اللوم . إنى أحب « چرترود » وأكنُّ لها احتراماً كما قلت يعادل هذا الحب فى قوته ونقائه ، ومن أجل ذلك أجد مثلك أن إدخال الاضطراب على نفسها واستغلال براءتها وعاهتها أمران ينطويان على الخسة والدناءة .

ثم احتج بأن كل ما يرغب فيه ويتوق إليه هو أن يكون لها عضداً وصديقاً وزوجاً ، وجهر لى بأنه لم يجد من الأمثل أن يتحدث فى هذا الشأن قبل أن يستقر على رأى حاسم ، وأن هذا الرأى لم تعرفه الفتاة بعدُ ، لأنه يرغب فى الإدلاء إلىّ به قبل أن يعلنه إليها .

سكت قليلا ثم استأنف الحديث :

— بين يديك الآن اعترافى ، وثق بأنى لا أخفى فى صدرى شيئاً آخر غيره .

لما سمعت هذه الأقوال توزعتنى الحيرة والذهول ، وكنت طوال إصغائى إليها أسمع نبض صدغىّ ودقات قلبى . أعددت اللوم لأسلطه على ابنى ولكنه جردنى رويداً من كل سبب يبعث السخط فى نفسى ، فشعرت بالتخاذل لضعف الحجة ، حتى أننى فى نهاية دفاعه ، لم أجد ما أنطق به .

وبعد صمت مرهق طويل ، استجمعت فكرى وقلت :

— هلم بنا إلى النوم .

ثم نهضت من مكانى ووضعت يدى على كتفه وتابعت الكلام :

— سأنبئك غداً برأيى فى كل ما سمعت .

— أعلن إلىّ على الأقل أنك لم تعد تشعر بالغضب علىّ .

— إنى فى حاجة إلى الليل لاستشارة الفكر والروية .

***

لما تقابلت مع « جاك » فى غداة اليوم التالى ، خيل إلىّ حقاً أنى أنظر إليه للمرة الأولى . وبدا لى دفعة واحدة أن ابنى لم يعد طفلا ، بل صار رجلا فى ميعة الصبا وشرخ الشباب ، وأدركت أنى إذا ظللت أعتبره طفلا ، فإن هذا الحب الذى عرفته بغتة يكون فى نظرى بشعاً دميما .

قضيت الليل فى إقناع نفسى بأنه طبيعى لا غرابة فيه ولا شذوذ على النقيض مما أجد . ولكن كيف كان يزداد ضيقى بهذا الغرام كلما أمعنت فى هذا الإقناع ؟ ذلك ما لم أدرك حقيقته إلا بعد مضى زمن قصير .

أردت أن أتحدث إلى « جاك » وأخبره بما استقر عليه رأيى ، وقد همست فى أذنى غريزة كالضمير لا تخطئ ولا تخدع ، ونبهتنى إلى ضرورة منع هذا الزواج مهما كلفنى الأمر ، فأخذته إلى نهاية الحديقة ، وبدأت قولى بسؤاله :

— هل أعلنت عواطفك إلى چرترود ؟

— كلا . ربما شعرت هى بحبى ، ولكنى لم أعترف لها بشىء .

— إذن عدنى أن تطيل أجل صمتك وكتمانك .

— أبى ، لقد عاهدت نفسى على طاعتك ، ولكن هل أستطيع أن أعرف ما لديك من الأسباب ؟

ترددت فى إجابة طلبه ، لأنى لم أدر هل الأسباب التى سبقت إلى ذهنى فى تلك اللحظة ، هى نفسها الخليقة بالذكر فى المقدمة ؟

واعترافاً بالحق أقول إن صوت الضمير كان أقوى وأوضح من صوت العقل فى إملاء هذه الكلمات .

— إن « چرترود » صغيرة السن غضة الإهاب ، ولا تنس أنها لم تتناول القربان بعدُ . تعلم يا بنى أنها ليست كغيرها من

الأطفال مع الأسف الشديد ، وأن نموها قد تأخر كثيراً ، وهى اصفاء دخيلتها كما ترى ، تستقبل أقوال الحب الأولى التى تقع على أذنها بحس مرهف ، ومن أجل هذا بالدقة ينبغى أن لا تُسِر بها إليها . إن نشر السيطرة على إنسان لا يستطيع الدفاع عن نفسه هو الجبن المجسم ، وعهدى بك شريفاً ترباً بنفسك عن الجبن والنذالة . تقول إن عواطفك نقية من كل ما يستوجب اللوم ، ولكنى أقول إنها تشتمل على إجرام لأنها مبكرة سابقة الأوان . إن الحكمة التى لا تزال تعوز « چرترود » ، ينبغى أن نهتدى نحن بنورها فى سبيل رعايتها . هذه مسألة ضمير فيما أعتقد .

ومن أجمل صفات « چاك » وخصائصه أنه يكفى فى إقناعه هذه الكلمات البسيطة : « إنى أترك الأمر لضميرك وأرضى بحكمه » التى طالما لجأت إليها فى معاملته حينما كان صغيرا .

نقدته خلسة على الرغم منى بنظرى السريع ، وكان عارى الرأس وشعره المرسل الضارب إلى صفرة الأصيل يلتمع فى تموج خفيف فوق صدغيه ويخفى تحته نصف أذنيه ، ثم قلت لنفسى : « لو استطاعت « چرترود » أن تراه ، لما ترددت فى الإعجاب بقده المشوق ومثاله المرن المستقيم ووجهه النضر الذى لا يزال يحمل سمة الطفولة البريئة ، ويتدجّى فيه مع هذا ظل مباغت من الجد والخطورة ! » .

قلت له وأنا أنهض عن المقعد الحجرى الذى كنا نجلس عليه :

— شيئاً آخر أريد أن أسألك إياه : قلتَ إنك كنت تنتوى السفر بعد غد ... أرجو أن لا تؤجل هذا الموعد . وينبغى أن تظل غائباً شهراً بأكمله . رجائى منك أن لا تختصر من هذه الرحلة يوماً واحداً ، أتحقق هذا الرجاء ؟

— نعم يا أبى . سأطيع أمرك .

وفى هذه اللحظة رأيت لونه قد امتقع وانكفأ حتى كست الصفرة الشديدة شفتيه . ولكنى استنتجت من رضوخه السريع أن حبه لا بد أن يكون فاتراً ضعيفاً ، واقتنعت بهذا الاستنتاج ، فشعرت ببرد راحة يعجز عنها الوصف كرجل ألقى عن ظهره العبء الفادح الذى يؤوده ، وعاد خفيف الجسم رافه النفس .

ومع هذا تأثرت بطاعته وخضوعه فقلت له فى رقة وعذوبة :

— إنى أسترد الطفل الذى أحبه .

ثم جذبته إلىّ فى رفق ووضعت شفتىّ على جبينه الوضاء ، فشعرت منه بتراجع ضئيل يكاد لا يُنَال بالحس ، ولكنى لم أشأ أن أتأذى بهذه الحركة أو أدعها تبعث فى نفسى الحزن والاكتئاب .

***

١٠ مارس .

كانت دارنا صغيرة تكاد لا تفى بما يعوز أفراد الأسرة من

السعة والراحة ، وهذا ما كان يضايقنى فى عملى أحياناً على الرغم من احتفاظى بغرفة ضيقة فى الطبقة الأولى كنت أستطيع أن أخلو فيها إلى زائرىّ ، ويزداد ضيق على الأخص حين كنت أرغب فى التحدث إلى أحد من خاصتى على انفراد دون أن أحتفل للأسلوب وأحتشد لفن الإلقاء ، كما كان يقع فى هذه الغرفة التي يسميها الأولاد : المكان المقدس ، ولا يلجونها إنفاذاً للأمر الذي يحظر عليهم ذلك .

فى هذا الصباح نفسه سافر « چاك » إلى « نيوشاتل » ليبتاع ما تتطلبه الرحلة من الأحذية ، وكانت السماء مصحية والجو مشرق رضىّ النسمات ، فخرج الأولاد مع « چرترود » بعد الإفطار ، يقودونها وتقودهم فى وقت واحد (يسرنى أن أسجل هنا أن شارلوت كانت بنوع خاص ترعى الفتاة وتحافظ عليها) .

هدأ البيت وتهيأت لى أسباب الخلوة إلى « أميلى » فى الوقت المعين لشرب الشاى الذى كنا نتناوله دائماً فى غرفة الطعام العامة ، وكنت أتمنى هذه الخلوة لشدة رغبتى فى تبادل الحديث معها . ويندر أن أجد نفسى منفرداً معها دون أن أشعر بنوع من الخجل ، وخطورة ما اعتزمت قوله فى هذه المرة غمزت علىّ الاضطراب كأنى مقبل على نشر اعترافاتى الخاصة ، لا على مخاطبتها فى شأن اعترافات ولدى « چاك » .

وقبل أن أنطق بكلمة ، أحسست فضلا عن هذا إلى أية درجة

يمكن أن يشترك مخلوقان فى عيشة واحدة ويتحابا ، ثم يظل كلاهما لغزاً مستغلقاً على الآخر ، وكيف تكون الأقوال ، سواء أكانت موجهة منا إلى الغير أو من الغير إلينا ، آنة شاكية كأنما هى ضربات مسبار تنبهنا إلى صلابة هذا البرزخ الفاصل وقوة مقاومته ، وإلى أننا إذا أغفلنا أمره ولم نلق إليه بالنا ، فإنه قد يزداد سمكا ومتانة .

بينما كانت تصب الشاى ، قلت مستهلا حديثى فى صوت مرتعش بقدر ما كان صوت ابنى بالأمس هادئاً رزيناً :

— تكلم معى « چاك » أمس مساء وهذا الصباح فى شأن حبه لچرترود .

فأجابتنى وهى مستمرة فى عملها دون أن تنظر إلىّ ، كأنما أعلن إليها شيئاً طبيعيا لا غرابة فيه ، أو على الأرجح لا أحمل إليها خبراً ألبتة :

— حسناً فعل .

— أفضى إلىّ برغبته فى الزواج منها . إن عزمه . . .

فقالت مغمغمة وهى تهز كتفيها فى حركة بسيطة :

— كان هذا من السهل إدراكه قبل وقوعه .

قلت وقد تهيجت أعصابى قليلا :

— إذن فهمت أنت شيئاً !

— شيئاً كان يتضح ويكشف عن نفسه رويداً منذ زمن

طويل ، ولكنه من الأشياء التى تفلت من ملاحظة الرجال وتلتوى عليها .

— كان من الواجب عليك فى هذه الحالة أن تلفتى نظرى وتسترعى انتباهى .

فبدت على ركن من شفتيها المتقلصة قليلا بسمة فاترة ، تلازم فى بعض الأحيان كتمان ذات نفسها وتحميه من الافتضاح ، ثم هزت رأسها فى انحراف وقالت :

— أفرضٌ علىّ أن أنبهك إلى كل مالا تلاحظه أو تلق بالك إليه ؟ !

ما دلالة هذا التلميح وما مغزاه ؟ هذا مالم أعرفه وما لم أشأ أن أحاول الوقوف عليه ، فضربت صفحاً عنه وقلت :

— الخلاصة أنى أريد أن أسمع لرأيك فى المسألة التى جئتك بخبرها .

فتنهدت وقالت :

— تعرف ياصديقى أنى لم أوافق قط على وجود هذه الفتاة بيننا .

كدت أغضب حين رأيتها تعود إلى الماضى على هذه الصورة ، ولكنى تمالكت نفسى فى عناء ومشقة ، وقلت :

— وجود « جرترود » ليس موضوع حديثنا . . . .

فقاطعتنى بقولها :

لقد كان رأيي دائماً أن إقامتها معنا لا تنتج خيراً .

وهنا ملكتني الرغبة فى استرضائها فاقتنصت جملتها الأخيرة واتخذتها وسيلة إلى استدراجها :

— إذن تعتبرين زواجاً مثل هذا شرا . . . ثقى بأن هذا القول هو ما كنت أروم سماعه منك ، ويسرنى جد السرور أن نستقر على رأى واحد . وفضلا عن ذلك فإن « جاك » اقتنع بالحجج التى شرحتها له وقابلها بالرضا والطاعة ، واتفقت معه على أن يسافر غداً للقيام برحلته التى ينبغى أن تستغرق شهراً كاملا ، فاطمئنى بالا من هذه الناحية .

سكتُّ قليلا ثم قلت :

— دفعنى اهتمامى مثلك بأن لا يجد « جرترود » هنا عند عودته إلى أن أفكر فى الأمر ، فوجدت من الأصوب أن أستودعها الآنسة « دى لا . م » حتى أستطيع الاستمرار فى رؤيتها ، إذ لا أخفى أنى فرضت على نفسى واجبات حقيقية نحوها لا مناص من القيام بها . وكثيراً ما شعر قلبى بأن الآنسة تود من حبة القلب أن تسدى إلينا جميلا ، فهى ستعنى « بجرترود » وسيغمرها السرور حين تعرف هذه الفكرة كما يدل على ذلك ابتهاجها بإعطائها دروساً فى الموسيقى ، وأعتقد أن هذه الطريقة ستريحك من إقامة تثقل عليك .

لم تتكلم « أميلى » لأنها فيما يظهر أصرت على الاحتفاظ بالصمت ، فعدت إلى الحديث :

— وهذه الحالة تحتم علينا أن نعمل مافى وسعنا حتى لا يرى « چاك » الفتاة فى محل إقامتها الجديد بغير علمنا ، ومن أجل هذا أعتقد أن من الأمثل شرح الموقف للآنسة « دى لا . م » ألا تقرين رأيى ؟

حاولت بهذا السؤال أن أحصل على كلمة من « أميلى » ولكنها ظلت مضمومة الشفتين كأنما أقسمت ألاّ تقول شيئًا ، فواصلت قولى ، لا لأن لدىّ شيئًا آخر أضيفه إلى ما سبق ، ولكن لأنقذ نفسى من صمتها الذى لم أستطع صبراً على احتماله :

— وعلى كل حال فإن « چاك » ربما يعود من رحلته مستفيقاً بارئًا من حبه . أيعرف الإنسان مجرد رغباته فى مثل سنه هذه ؟!

فأجابتنى بلهجة غريبة :

— أوه ! وحتى بعد هذه السن لا يعرفها الإنسان دائمًا .

أغضبتنى لهجتها المستبهمة ذات الحكم اللاذع ، لأنى بطبعى وتكوينى كلف بالصراحة ، فلا يلائمنى الغموض بسهولة . وبعد لحظات التفت إليها ورجوت منها أن توضح ما ترمى إليه بكلماتها ، فقالت فى نغمة الحزن :

— لا شىء ياصديقى . فكرتُ فقط أنك كنت منذ هنيهة

تتمنى أن أنبهك إلى كل ما يفلت من ملاحظتك .

— وإذن ؟

— وإذن قلت لنفسى إن التنبيه ليس من الهين اليسير .

ذكرت أنى كنت أستنكر الغموض ، وحرصاً على هذا المبدأ ، أبيت السكوت على المعانى المستترة خلف الألفاظ ، فقلت فى قليل من الحدة والخشونة كما أظن :

— حين تريدين أن أفهم قولك ينبغى أن تفصحى أكثر من هذا .

ولكنى أسفت للهجتى فى الحال ، إذ رأيت شفتيها ترتجفان بعض لحظات . ولم تلبث أن أشاحت بوجهها وازورّت عنى معرضة ، ثم نهضتْ وسارت فى الغرفة بضع خطوات فى تردد وتخاذل كأنها مفككة المفاصل منسرقة القوى .

وخشيت أن تخرج فصحت سائلا :

— خبرينى يا « أميلى » ، لماذا يلازمك الاكتئاب الآن ، وقد دُبر الأمر وليس فيه على سوئه ما يخشى عواقبه ؟ !

شعرتُ فى هذا الوقت بأن التفاتى إليها يضايقها ، فأدرت ظهرى واتخذت من المنضدة متكأً لمرفقىّ ومن راحتىّ موئلا لخدىّ ، ثم قلت :

— لقد خاطبتك منذ لحظات فى عنف وغلظة ، فانشرى علىّ جناح عفوك .

وحينئذ عرفت من وقع قدميها أنها تدنو منى ، وشعرت بأصابعها توضع على جبينى وهى تقول فى صوت رقيق تخنقه العبرات :

— صديقى المسكين !

ثم غادرتْ الغرفة على الفور .

وأثبت فى هذا المقام أن كلماتها التى بدت لى فى حينها ملففة مستغلقة ، كشفت لإدراكى عن مغزاها ومرماها بعد زمن قصير . ولقد دونتها كما ظهرت لى أول الأمر ، وفى هذا اليوم فهمت فقط أن الوقت قد حان لنقل « چرترود » إلى مكان آخر .

***

١٢ مارس .

. . . فرضت على نفسى واجباً هو أن أخصص كل يوم جزءاً من الوقت « لچرترود » يختلف قصراً وطولا باختلاف الأعمال اليومية التى يتحتم علىّ إنجازها . وفى غدوة اليوم التالى لحديثى مع « أميلى » وجدت لدىّ فسحة من الوقت ، وكان الجو مغرياً بصفائه ورقة شمائله ، فخرجت مع الفتاة نسير فى مستدقات الغابة تحت قباب مخرّمة من الأغصان حتى بلغنا غضون جبال (چورا) حيث يسيطر

البصر على بقاع من الريف مترامية الأطراف ويمتد من تحت ضباب رقيق شَف إلى جبال الألب البيضاء التى تبعث فى النفس دهشة الجمال والفتنة .

لما وصلنا إلى المكان الذى ألفنا الجلوس فيه ، كانت الشمس قد مالت إلى الناحية التى عن شمالنا . وكان يمتد تحت أقدامنا على مسافة طويلة ، مرعى ضعيف الكلأ فى بعض نواحيه كثيفه فى البعض الآخر ، يرعى فيه على البعد قطيع من البقر ، تحمل كل بقرة منه ، جريا على عادة القطعان فى الجبال ، جرساً صغيراً فى العنق .

ولما استقر بنا المقام وبلغ رنين الأجراس سمع « جرترود » قالت وهى تصغى إليه :

— إنها ترسم البقعة والمنظر الذى تراه .

ثم سألتنى كدأبها حين نخرج للاستراحة فى كل مرة ، أن أصف لها المكان الذى اخترناه لجلوسنا ، فقلت :

— ولكنك تعرفينه قبل اليوم . إننا فى طرف الغابة حيث ترى منه جبال الألب .

— وهل تتضح اليوم للنظر ؟

— يستطيع الإنسان أن يراها فى أجلى رونق وبهاء .

— قلت لى ذات مرة إنها كل يوم هى فى شكل . . .

— عاذا أقارنها اليوم ؟ بظمأ فى يوم صيف قائظ . قبل ورود

الماء سيكون قد كمل انحلالها وذوبانها فى الهواء .

— أريد أن تخبرنى هل فى المرعى المترامى أمامنا زهرات من الزنبق ؟

— كلا يا «جرترود» إن زهرات الزنبق لا تنبت فى مثل هذه الأمكنة العالية وربما لا ينمو فيها إلا أنواع منها نادرة .

— ألا ينبت فيها ما يسمى بزنبق الحقول ؟

— ليس فى الحقول زنبق .

— حتى الحقول التى فى أرباض «نيوشاتل» تخلو منها ؟

— لا وجود لأزهار بهذا الاسم .

— إذن لماذا يقول لنا السيد المسيح «أنظروا إلى زنابق الحقول» ؟

— لم يذكرها إلا لأنها كانت معروفة فى عصره دون ريب ، ولكن افتتان الناس فى الزراعة واستنباط أنواع النبات ، قضى على هذا النوع من الأزهار .

— أتذكر أنك قلت لى مراراً إن أعظم ما يفتقر إليه هذا العالم الأرضى هو الثقة والمحبة . ألا تظن أن الإنسان بثقة تزيد قليلا على ما عنده ، يعود ثانية إلى رؤية زنابق الحقول ؟ إنى حين أصغى إلى هذا القول ، أؤكد لك أنى أراها . سأصفها لك ، إذا شئت — كأنى بها أجراس من لهب وشهب ، أجراس كبيرة من زرقة السماء

مملوءة بعطر المحبة يموج بعضها فى بعض كلما داعبها نسيم المساء. لماذا تخفى عنى أنها كائنة هنالك أمامنا ؟ أنى أشعر بها ! أرى المرعى زاخراً بها !

— إن هذه الزهرات ليست أكثر جمالاً مما ترينها ياعزيزتى « چرترود » .

— قل إنها ليست أقل جمالا .

— إنها جميلة كما ترينها .

— « وأقول لك فى الحق إن سليمان نفسه ، فى إبان مجده وعظمته ، لم يبلغ فى كسوته مبلغ أية واحدة منها » .

هذه نبذة من أقوال المسيح اقتبستها « چرترود » وقالتها فى صوت عذب منغَّم ، نخيل إلىَّ وأنا أصغى إليها أنى أسمع هـذه الكلمات للمرة الأولى .

وكررتْ هـذه الجملة « فى إبان مجده وعظمته » بلهجة الذاهل السابح فى التأمل ثم ظلت بعض الوقت صامتة ، فعدت إلى الحديث :

— قلت لك يا « چرترود » . إن من لهم فى رؤوسهم أعين ، هم الذين لا يعرفون أن يروا ويبصروا .

وفى هذه اللحظة سمعتُ فى أغوار قلبى لهذه الصلاة « لك الحمد يارب على أنك تطلع المساكين المحدودين على ما تخفيه عن الأذكياء المجدودين » . وعلى حين بغتة صاحت الفتاة قائلة فى حماسة وبشر :

— آه ! لو تعلم كيف أتصور في سهولة كل هـذا ! أيعوزك الدليل ؟ أتريد أن أصف لك المكان ؟ . . . تقوم من خلفنا ومن حولنـا وفوق مستوى رؤوسنا أشجار التنوب الهائلة ذات الطعم المائل إلى الصنوبر ، والسوق الضاربة إلى حمرة الرمان ، والأغصان الطويلة الأفقية السمراء التي تئن كلما هب عليها الهواء وثناها . وينبسط أمامنا ، ككتاب مفتوح محنى على مِقْرَأ الجبل ، المرعى الفسيح المخضوضر اللون ، الذي تكسبه الظلال زرقة حين تخيم والشمس صفرة حين تبرز ، وكلمات هذا الكتاب الجلية البارزة هي أزهار — من كف الذئب وشقايق النعمان وكف السبع وزنابق سليمان البديعة — تأتي الأبقار لتتهجّى حروفه بأجراسها وتهبط الملائكة لتقرأ فيـه ، ما دامت عيون الناس مغلقة كما تقول . وفي نهاية الكتاب أرى نهراً كبيراً كأنه من لبن تكسوه غلالة رقيقة من البخار والضباب ، يغطي هوة هائلة من الأسرار الغامضة ، وليس له من شاطئ آخر غير جبال الألب الفتانة هنا لك على بعد شاسع من مكاننا . . . وإلى تلك المرتفعات الشاهقة سيذهب « چاك » . قل : هل سيسافر غداً حقا ؟

— استقر الرأي على أن يسافر غدا . هل أخبرك بذلك ؟

— كلا . ولكني فهمت من تلقاء نفسي . هل سيتغيب وقتاً طويلا ؟

— شهراً . . . «چرترود» أريد أن أسألك . . . لماذا لم تقصى علىّ أنه اجتمع بك فى الكنيسة ؟

— جاءنى فى البيعة وقابلنى مرتين . أوه ! إنى لا أريد أن أخفى عنك شيئاً ، ولكنى خشيت أن أسبب لك ألماً .

— لقد ولّده فى نفسى كتمانك .

تحسستْ بيدها يدى وقالت :

— كان يحزنه السفر .

— خبرينى يا « چرترود » . . . هل أسر إليك أنه يحبك ؟

— كلا ، ولكنى أشعر جد الشعور بهذا من غير حاجة إلى الجهر به . . . إن حبه لى لا يدانى حبك .

— وأنت يا « چرترود » أيؤلمك رحيله ؟

— من الأصوب أن يسافر ، هـذا رأيى . إنى لا أستطيع أن أجيبه على عواطفه .

— ولكن أفصحى : أيؤلمك سفره ؟

— تعرف جيداً أنه أنت الذى أحب يا سيدى الراعى . . . أوه ! لماذا تسحب يدك ؟ لم أخاطبك على هذه الصورة إلا لأنك متزوج . وفضلا عن هـذا فإن الإنسان لا يبنى بفتاة ضريرة ، وإذن ما الذى يحول دون أن نتحاب ؟ تكلم ياسيدى الراعى وقل هل تجد هذا الحب خطيئة وشرا ؟

— الشر لا يكون فى الحب أبداً .

— لا أشعر بغير الخير فى قلبى . لا أريد أن يألم « چاك » من أجلى . . . أريد أن أجنب الجميع الألم . . . لشد ما أرجو ألاّ تهب من ناحيتى إلاّ ريح الصفاء والسعادة !

— « چاك » يفكر فى طلب يدك .

— أتأذن لى فى محادثته قبل سفره ؟ أرجو أن أفهمه ضرورة نزوله عن حبي . سيدى الراعى ، أظنك تدرك أنى لا أستطيع الزواج من أحد . أترانى على حق ؟ ستسمح لى أن أتحدث إليه ، أليس كذلك ؟

— لك ما تريدين فى هذا المساء .

— كلا . غدا فى لحظة السفر نفسها . . .

تضيّفت الشمس إلى المغيب فى روعة أخاذة ، وكان الهواء رخيا هادئاً ، فنهضنا وأخذنا ، ونحن نتبادل الحديث ، طريق العودة وقد خيم عليه غبش المساء .

الكراسة الثانية

٢٥ ابريل .

اضطررت إلى ترك هذه الكراسة بعض الوقت .

تصدع الثلج وذاب ، وما كادت الطرق تعود صالحة للسير ، حتى رأيت من الواجب علىّ أن أقوم بإنجاز عدد كبير من الالتزامات كنت مرغما على إرجائها طوال الزمن الذى بقيتْ فيه قريتنا محاصرة بالثلوج . وبالأمس فقط استطعت أن أجد من الفراغ بعض لحظات .

وفى البارحة أعدت قراءة كل ما دونته هنا . . .

واليوم وقد آن لى أن أجرؤ على تسمية العاطفة التى ظل قلبي لا يعترف بها وقتا طويلا ، باسمها ، أكاد لا أفسر لنفسى كيف استطعت إلى الآن أن أخطئ فى إدراكها ، وكيف جاز أن تظهر لى بعض أقوال « أميلى » التى دونتها فيما سبق غامضة مستبهمة ، وكيف تيسر لى بعد قول « چرترود » الساذج وصراحتها الجلية أن أشك فى حبي لها ولا أتبين حقيقته ! ذلك أنى كنت حينذاك لا أقر مطلقا حبا حلالاً خارجا عن دائرة الزواج من ناحية ، ولا أوافق على الاعتراف بأى شئ محرم فى العاطفة التى تجذبنى نحو «چرترود»

بقوة وإلحاح شـديدين من ناحية أخرى .

سذاجة اعترافاتها وصراحتها نفسها أدخلت على نفسى الثقة والطمأنينة ، فكنت أقول فى دخيلتى : إنها طفلة . والحب الحقيقى لابد أن ينتج الاضطراب والتبلبل ويسبغ على الوجه حمرة الخجل .

وقد أقنعت نفسى بأنى أحبها كما يحب الإنسان طفلا عاجزاً ، وكنت أعنى بها كما يعنى الإنسان بمريض — وبمرور الزمن أحلتُ هذا العطف المستمر إلى التزام خلقى ثم إلى واجب .

نعم لقد شعرتُ حقا فى ذلك المساء نفسه الذى تحدثتْ إلىّ فيه كما ذكرت فى حينه ، بأن نفسى كانت رافهة طلقة فرحة إلى درجة عظيمة ، ولـكننى أخطأت فهمها وجهلت حقيقة أمرها . وظللت فى الخطأ والجهل وأنا أسطر ما دار بيننا من الأحاديث . ولـكونى كنت أعتقد أن الحب شئ يستوجب اللوم ، وأرى أن كل ما يستوجب اللوم يثقل على النفس ، ولم أشعر قط بأن نفسى مثقلة محنية ، فإنى لم أعتقد بأن الحب يجرى خلال عواطفى

وأرانى سجلت هذه الأحاديث ، لا كما وقعت وحسب ، بل سطرتها أيضا فى هذا الاستعداد الفكرى الذى ذكرته . وأقول فى صدق وإخلاص إنى لم أفهم وأدرك حق الإدراك إلا حين أعدت قراءتها هذه الليلة .

***

أذنت «لجرترود» فى تبادل الحديث مع «جاك» إنفاذا لوعدى ، وعقب سفره مباشرة ، استردت حياتنا مجراها البالغ فى الهدوء . وهو لم يرجع من رحلته إلا فى الأيام الأخيرة من العطلة ، وكان يتكلف اجتناب مقابلتها تارة ، ويتصنع العزم على أن لا يكلمها إلا تحت سمعى وبصرى تارة أخرى .

انتقلت الفتاة كما اتفقنا إلى الإقامة فى بيت الآنسة «لويز» حيث كنت أراها كل يوم . ولكننى تعمدت أن لا أتحدث إليها فى شئ ينتج عنه الانفعال والتأثر ، إذ كنت لا أزال أخاف الحب وأرهب جانبه . ولم أعد أخاطبها إلا فى لغة الراعى ولهجته وفى أغلب الأحيان فى حضرة «لويز» ، موجها اهتمامى على الأخص إلى تعليمها الدينى لأعدها إعداداً كافيا «لتناول القربان» فى عيد القيامة . ولما جاء يوم العيد تناولت القربان أنا أيضا .

كان ذلك منذ خمسة عشر يوما . ومما بعث الدهش فى نفسى أن «جاك» وقد آب من سفره ليقضى معنا أسبوعا من العطلة ، لم يصحبنى إلى «المائدة المقدسة» ويدعونى إلى الأسف اضطرارى إلى القول إن «أميلى» تغيبت مثله للمرة الأولى من يوم زواجنا إلى الآن . وغالب الظن أنهما تعاهدا على ذلك وأزمعا بتغافلهما هذا الموعد الحافل أن يلقيا على ابتهاجى ظلالا قاتمة : وفى هذه الحالة أيضا هنأت نفسى بأن «جرترود» لم تستطع أن ترى ما وقع ،

وبأنى قاسيت وحدى ثقل هذه الظلال .

كنت أعرف امرأتى معرفة وثوق وخبرة ، ومن أجل ذلك أدرك تمام الإدراك كل تأنيب مستتر توجهه إلىّ عن طريق سلوكها وهى لم تقدم قط على استهجان أعمالى فى صراحة وعلانية ، ولكنها تلجأ إلى إظهار استنكارها بالركون إلى ضرب من الإعراض والعزلة .

ولقد همى على قلبي سيل الحزن العميق من أن شكاية من هذا النوع — أريد أن أقول : كما أكره أن أعتبرها — استطاعت أن تثنى نفس « أميلى » حتى تصرفها عما كانت تعده أسمى الواجبات . ولما عدت إلى البيت ، صليت من أجلها بقلب ملؤه الصفاء والإخلاص .

أما تغيب « جاك » فكان يرجع إلى أسباب أخرى كشف لى عنها حديث جرى بيننا بعد ذلك بأيام قلائل .

***

٣ مايو

دفعنى تعليم « جرترود » الدينى إلى أن أعيد قراءة الإنجيل بعين جديدة ، وكنت أتبين كلما أمعنت فى الاطلاع أن عدداً كبيراً من الأفكار والتصورات الذهنية التى تتكون منها عقيدتنا المسيحية ، ناشئ عن تفسيرات القديس بولس ، وليس عن أقوال المسيح .

كان هذا بالذات موضوع المناقشة التى جرت أخيراً بينى وبين

« جاك » ، وقد أصبح من المتعصبين للتقليدات والمعتقدات الدينية المأثورة ، لأن مزاجه الذى يشوبه بعض الجفاف ، لم يدع قلبه يمد ذهنه بالغذاء الكافى . وهو من أجل هـذا يأخذ علىّ أنى أختار من المذهب المسيحى « ما يحلو لى ويستدر إعجابى » ولـكنى فى الحق لا أختار قولا بعينه من أقوال المسيح ، وإنما إذا خيرت بينه وبين القديس بولص ، وقع اختيارى عليه . وابنى مخافة أن يجعل أحدهما معارضاً للآخر ، يرفض التفرقة بينهما ، ويأبى أن يشعر بالانتقال من أحدهما إلى الآخر بتباين فى الإلهام ، ويحتج إن قلت إنى أسمع لرجل فى قول القديس بينما أستمع إلى الله فى قول المسيح . وكلما استرسل فى تعقله وإبداء حججه ، ازددت اقتناعا بهذه الفكرة : إنه لا يتأثر مطلقاً باللهجة الإلهية الخالصة التى تلازم كل كلمة من أقوال المسيح .

إنى أبحث خلال الإنجيل عن وصايا ووعيد ودفاع فلا أظفر بطائل . . . كل هذا من عند القديس بولص وحده ، وعدم وروده أصلا فى أقوال المسيح ، هو على وجه الدقة ما يضايق « جاك » والنفوس المماثلة لنفسه لا تـكاد تفقد الحس بأن إلى جانبها أوصياء وصفا من المصابيح ، وحواجز واقية ، حتى تعتقد أنها ضلت وصارت إلى التهلـكة . وفضـلا عن هذا فإنها تنظر بعين الاستياء والضيق إلى حرية يستمتع بها غيرها ، وتنزل هى عنها ، وتتمنى أن تحصل

غضبا على كل ما يبدو الاستعداد الكريم لمنحها إياه بدافع الإيمان والمحبة .

قال لى « چاك » :

— ولكنى يا أبى أتمنى أنا أيضا سعادة الأنفس .

— كلا ياعزيزى . إنك تتمنى خضوعها .

— إنه فى الخضوع تكون السعادة .

تركت له الكلمة الأخيرة ولم أجبه ، لأنى لا أحب الجدال ، ولكنى أعلم جد العلم أن الإنسان يفسد السعادة ويعرضها للخطر إذا ما حاول أن يحصل عليها بما ينبغى ، على النقيض مما يظن ، أن يكون نتيجة لها فقط ، وعلى فرض صحة الفكرة القائلة بأن النفس المحبة تنعم فى خضوعها وتغتبط ، فإنه لا شىء يبعد الإنسان عن السعادة أكثر من خضوع بغير محبة .

والحاصل أن « چاك » فطنٌ جيد التعقل ، وإذا كنت أتألم من أن أجد فى عقل ناشئ كهذا كثيرا من الصلابة المذهبية وهو ما يزال شابا ، فإنى مع هذا أعجب غاية الإعجاب دون ريب بقيمة حججه وثبات منطقه وجلده . ويبدو لى فى كثير من الأحيان أنى أصغر منه سنا ، بل أصغر منه اليوم عما كنت بالأمس ، فأكرر هذا القول : « إن لم تعودوا كأطفال صغار ، فلن تدخلوا ملكوت السموات » .

أخيانة منى للمسيح ، وتصغير للإنجيل وتدنيس لحرمته ، أن أرى فيه على وجه الخصوص « طريقة منظمة للوصول إلى حياة السعداء الأبرار » ؟ إن حالة الرضا والفرح يحول دونها شكنا وقسوة قلوبنا وضلالتها ، مع أنها حالة إجبارية للمسيحى ، فكل فرد جدير بقسط يناسبه من البشر والفرح ، وكل فرد يجب عليه أن يطمع فيه ويطمح إليه . إن بسمة « جرترود » وحدها علمتنى فى هذا الشأن أكثر مما أفادت هى من جميع دروسى التى ألقيها عليها .

وقد برز أمام عينى قول المسيح هذا وضاء ساطعاً « لو كنتم عميا ، لما كان لكم خطايا مطلقاً » . إن الخطيئة هى ما يعكر صفاء النفس ويضرب عليها الظلمة ، هى ما يعترض فرحها ويطارده ، ولهذا تنشأ سعادة « جرترود » الكاملة المشرقة من جميع أجزائها النضرة ، عن جهلها التام بالخطيئة ، فليس فيها إلا نور ومحبة .

وضعت بين يديها اليقظتين الأناجيل الأربعة والمزامير ورؤيا القديس يوحنا ورسالاته الثلاث حيث تستطيع أن تقرأ هذه الجملة « الله نور وليس فيه أى أثر للظلمات » كما تهيأ لها أن تقرأ من قبل فى إنجيلها هذه الكلمات « إنى نور السموات والأرض ، فمن تبعنى فلن يمشى فى الظلام » ورأيت أن أضن عليها برسائل بولص الرسول ، إذ ما دامت تجهل الخطيئة الجهل كله لأنها ضريرة ، فكيف يجوز أن أزعجها بأن أدعها تقرأ هذه العبارة « اكتسبت

الخطيئة قوة جديدة بالوصية » . (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية الإصحاح السابع آية ١٣) والمنطق الذى يليها مهما يكن رائعا خلابا ؟

* * *

٨ مايو

حضر الطبيب « مارتان » بالأمس من (شودى فون) لزيارتى واختبر طويلا عينىّ « چرترود » بالجهر الخاص بالرمد ، وأخبرنى أنه تكلم فى شأنها مع الطبيب الإخصائى « رو » المقيم بلوزان، وأنه سيدلى إليه بملاحظاته لا محالة . والرأى عندهما أن الأمل كبير فى رد البصر إلى الفتاة بعملية جراحية ، ولكننا اتفقنا على أن نخفى عنها هذا الموضوع حتى يجتمع لدينا بعد البحث أسباب الثقة بالنجاح ، إذ ما الفائدة من إيقاظ أمل فى نفس « چرترود » قد نضطر إلى القضاء عليه قبل أن يستفيق ؟ ثم ألم تكن سعيدة فى حالتها هذه ؟ . . .

وقبل أن يذهب « مارتان » إلى نِيَّته ، طلبت منه أن يعود إلىّ بما يستقر عليه رأى زميله .

* * *

١٠ مايو

اجتمع « چاك » « بچرترود » فى حضرتى يوم عيد القيامة — على الأقل رأى ابنى الفتاة ثانية وتحدث إليها ، ولكن فى أشياء تافهة

لا قيمة لها ولا خطر . وقد أظهر أنه أقل انفعالا وتأثراً مما كنت أظن وأخشى ، فدلني ذلك مرة أخرى على أن حبه لو كان مضطرما حقا ، لما استطاع أن يخمده فى مثل هذه السهولة ، مهما تكن « چرترود » قد أعلنت إليه قبل سفره فى العام الماضى أن هذا الحب ينبغى أن يظل بلا أمل . ولاحظت أنه على غير عادته التى ألفها فى الماضى ، يخاطب الفتاة بالتعظيم ، وذلك ما كنت أفضله من غير شك . ومع ذلك لم أسأله السبب ، لأنى قنعت بالغبطة التى شعرت بها واستخفتنى حين رأيته يدرك هذا من ذات نفسه . . . إن قلبه يشتمل على كثير من الخير بلا نزاع .

وبرغم ما ذكرت ، فإنى أظن خضوع « چاك » لم يتحقق إلا بعد عناء ونضال . ومن الشاق المكدر أن الضغط الذى رأى من الواجب أن يفرضه على قلبه ، يبدو له الآن خيراً فى ذاته ، ويود لو يراه مفروضاً على الناس جميعاً . وقد أحسست برغبته هذه جلية فى المناقشة التى جرت بيننا وذكرتها فيما سبق . ألم يقل «لاروشفوكو» إن العقل فى أغلب الأحيان خُدْعَة القلب ؟

ومما لا يحتاج إلى إيضاح أنى لم أجرؤ على لفت « چاك » إلى هذه الحكمة أثناء المناقشة ، لأنى أعرف مزاجه وأعتقد أنه من الذين لا يزدهم الجدال إلا عناداً وإصراراً على رأيهم ، ولكنى فى المساء نفسه ، وجدت ، وفى أقوال القديس بولص على وجه

التحقيق ، ما أجيبه به (لم أستطع مصاولته إلا بأسلحته) فوضعت فى غرفته خلسة ورقة صغيرة تحمل هذه الآية « لا يَدِن من لا يأكل من يأكل لأن الله قَبِلَه » (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ آية ٢[1]) .

كنت أستطيع أيضاً أن أسطر هذه الآية تكملة للسابقة « إنى عالم ومتيقن فى يسوع أن ليس شىء نجساً بذاته إلا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجسٌ » (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ آية ١٤) ولكنى أحجمت خشية أن يفترض فى ذهنى من ناحية « جرترود » تأويلا شائناً معيباً ، لا يصح مجرد مروره بباله .
ومن الواضح البين أن هذه الآية تتكلم عن الأغذية ، ولكن أليست ككثير غيرها من آيات الكتاب المقدس تلهم الناس معنيين أو ثلاثة ، مثل (« إذا كانت عينك » . . . ومعجزة عرس قانا الجليل إذ أحال المسيح الماء إلى خمر ، ومعجزة أرغفة الشعير الخمسة التى أشبعت نحو خمسة آلاف رجل كما ورد فى الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا ، الخ . . .) .

وليس الأمر هنا ، أمر جدال ، فإن معنى هذه الآية وسيع عميق ، والتقييد ينبغى ألاَّ يمليه القانون ، بل تقضى به المحبة ، ومن أجل هذا ، قيدها القديس بولص بقوله « فإن كان أخوك بسبب

(١) نقلنا نصوص الآيات من الأناجيل العربية المتداولة .

طعامك يحزن فلستَ تسلك بعدُ حسب المحبة » (إصحاح ١٤ آية ١٥)
حقا إن الشيطان يهاجمنا ويغزونا لخلونا من المحبـة . رب طهر قلبي
من كل ما عداها . . . ما كان أشد خطئى فى استثارة ابنى واستفزازه !
فى اليوم التالى وجدت على مكتبي الورقة نفسها التى نقلت فيها الآية
وقد كتب « چاك » على ظهرها : « لا تهلك بطعامك ذلك الذى
مات المسيح لأجله » (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح
١٤ بقية الآية ١٥) .

أعدت قراءة الإصحاح مرة أخرى فوجدته يفتح باب مناقشة
لا تقف عنـد حد ، فهل أعذب بضروب القلق نفس « جرترود »
وأنشر الغمام الجون على سمـائها المشرقة بأسطع الأضواء ؟ — ألا
ازداد قرباً من المسيح وأزيدها معى دنوا منه حين أعلمهـا وألقى فى
اعتقادها أن الخطيئة الوحيدة هى الاعتداء على هدوء الغير وسعادته
أو إفساد سعادتنا الخاصة وتعريضها للخطر ؟

إن بعض النفوس مع الأسف الشديد تظل معرضـة عن
السعادة بطبعها عصية عليها إلى درجة عجيبة ، فيها خرق وغباء
وافتقار إلى القابلية والاستعداد . . . إنى أفكر فى امرأتى « أميلى »
المسكينة ، لأنى أدعوها إلى السعادة وأدفعها دفعاً إليها وأكاد
أرغمها على أن تهنأ وتسعد . نعم بودى لو أُنهض كل فرد وأدنيه من
الله . ولكنها تستخفى علىّ وتفلت من رغبتى وتنطوى على نفسها بغير

انقطاع كبعض الأزهار التى لا تنفع فى تفتحها أشعة الشمس ، وكل ما يقع عليه بصرها يقلق بالها ويحزن نفسها .

أجابتنى ذات يوم :

— ماذا تريد ياعزيزى ، لم يتيسر لى أن أكون ضريرة .

آه ! ما أقسى سخريتها هـذه ، وما كان أشد حاجتى إلى بذل الجهد لأجنب نفسى الاضطراب ! ومع هذا كان عليها أن تفهم ، فيما أرى ، أن تلميحها إلى عاهة « جرترود » من شأنه أن يجرح شعورى جرحاً أليماً . وقد جعلتنى بقولها أحس أن ما يستدر إعجابى من الفتاة بنوع خاص هو حلمها ووداعتها الوفيرة . وفى الحق إنى لم أسمعها قط تحمل على أحد من الناس أو تأخذ عليه ما يستوجب التململ والشكاية ، ومن الطبيعى أنى أحرص على أن تجهل كل ما يمكن أن يؤلمها ويؤذى شعورها .

وكما أن النفس المبتهجة بإشراق المحبة فيها تنشر السعادة من حولها ، كذلك كان محيط « أميلى » مستوحشاً قاتماً . ويذكرنى هذا « بأمييل » الذى لو أراد أن يصف نفسه لقال إنهـا نسيج من أشعة سوداء !

حين كنت أعود بعد نهار أقضيه فى جهاد الوعظ والإرشاد وزيارة المرضى والمعوزين والرازحين تحت أعباء النوازل والملمات ، وأدخل البيت والليل يرخى سدوله متساقطاً من الإعياء والكلال

فى بعض الأحيان ، والقلب فى أشد الحاجة إلى الراحة والعطف والحرارة ، كنت لا أجد فى غالب الأوقات إلا ألواناً من التبكيت والمشادة ، فيحملنى هذا على تفضيل الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة خارج المنزل .

أعرف جيداً أن خادمتنا العجوز « روزالى » لا تنفذ أبداً إلا رأيها ، وهى ليست على خطأ فى كل مرة ، كما أن « أميلى » ليست دائماً على صواب حين تحاول أن تخضعها لرأيها . وأعلم جد العلم أن « شارلوت » و « جاسبار » يكثران من الهياج فى البيت ، ولكن أما كان يتيسر لامرأتى أن تحصل على نتيجة مرضية لو خفضت قليلاً من الصراخ الذى تتبعهم به فى كل حين ؟ إن الإغراق فى النهى واللوم والتعنيف يفقدها الأثر المرجو منها ، كما يكسر تعاقب المدّ على شطئان البحار من حدة الحصى الذى يكسوها . ومن أجل هذا كان أولادى لا يبالون بها ولا يأبهون لها إلا قليلا على النقيض منى .

أعرف أن « كلود » الصغير يعانى ألم الأسنان الناشئة (هذا على الأقل ما كانت أمه تعلل به عويله كلما شرع فيه) . ولكن أليس يغريه بالإمعان فى الصراخ أن تهرع إليه فى الحال ، هى أو أخته « سارة » ، وتدلله فى افتنان واستمرار ؟ إنى أعتقد فى إصرار بأنه كان يقلل كثيراً من عويله لو تُرك جملة مرات متعاقبة يفرغ كل ما عنده منه أثناء غيبتى . ولكنهما مع الأسف لا تعملان إلا

على العكس مما أشتهى ولا تدللانه إلا حين أكون خارج المنزل حتى إذا عدت أطلق ما أمسك عليه من الصراخ والعويل .

وتشبه « سارة » أمها جد المشابهة ، وهذا ما جعلنى أود لو أستودعها مدرسة داخلية ، وهى لا تشبه أمها كما كانت هذه فى سنها حين كنا خطيبين ، ولكن كما حورتها هموم الحياة المادية ، أو على الراجح كما صيرتها زراعة هذه الهموم (إذ أن أميلى تزرعها حقًّا وتتعهدها بالرى والعناية) . وليس من شك فى أنى أكاد أنكر اليوم الملاك الذى كان يبتسم فى الزمن الماضى لكل توثب نبيل يصدر عن قلبى ، والذى كنت أحلم بوحى الغريزة أن يشاركنى فى حياتى ، وكان يخيّل إلىّ أنه يقودنى ويسبقنى نحو النور — أكان هذا حقيقة ، أم أن الحب فى ذلك العهد كان يضلنى ويخدعنى ؟ . . . ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إنى لم أر من « سارة » اهتماماً إلا بكل تافه مبتذل ، ولا استسلاماً إلا للهموم الضئيلة الحقيرة على منوال أمها .

وكانت قسمات وجهها نفسه ، تحمل سمة العبوس والاكتئاب وتتلفع بما يشبه الغلظة والخشونة . وليس لها أقل ميل إلى الشعر أو رغبة مذكورة فى القراءة ، ولم أباغت قط بينها وبين أمها بمحادثة تستهوينى فأتشهّى الاشتراك فيها ، وحين أكون معها أحس بوحدة أثقل على نفسى وآلم لها مما تكون طيلة انزوائى فى مكتبى ، وهذا

ما لجأت إليه وأمعنت فى إطالته يوماً بعد يوم حتى صار عادة مألوفة عندى .

ولما ورد الخريف ، اعتدت أيضاً على الذهاب إلى بيت الآنسة « دى لا . م » لتناول الشاى حيث أوثر قضاء الفراغ ، كلما سمحت أعمالى وزياراتى ، أى كلما استطعت العودة مبكراً . وقد شجعنى على ذلك قصر النهار وسرعة انقضاض الليل .

لم أقل بعدُ إن الآنسة « لويز » أضافت مع « چرترود » ثلاث فتيات فاقدات البصر نزولاً على رأى الطبيب « مارتان » . وفرضت « چرترود » على نفسها بدورها أن تعلمهن القراءة وبعض أعمال منزلية مختلفة هينة ، فلم يلبثن أن أظهرن إتقاناً ومهارة .

أية راحة وأى عزاء وانتعاش كنت أشعر به كلما حظيت بجو « الهرْى » (اسم بيت الآنسة) الدافئ ، ولشد ما كان يشق علىّ الحرمان حين كنت أضطر فى بعض الأحيان إلى التغيب عنه يومين أو ثلاثة !

ويسعدنى القول أن الآنسة « لويز » تشرف على شؤون « چرترود » والفتيات الثلاث دون أن تضيق بهن أو تتأفف ، يساعدها فى العمل ثلاث خادمات مخلصات يجنبنها التعب . وهل فى وسع إنسان أن يسفه الثروة والفراغ فى محاباتهما لهذه الآنسة ، وهى أجدر الناس بهما ؟ إنهـا تحبس كل وقتها وعنايتها على الفقراء

والمساكين ، ولها نفس عامرة بأعمق الورع والإيمان ، وكأنى بها لم تخلَق إلا لأعمال البر فى الأرض والعيش فيها خالصة للعطف والمحبة . وعلى الرغم من شعرها الذى خالطه البياض والمغطى دائماً بطاقية من المخرم الأبيض ، فإن ابتسامتها وديعة بريئة كالطفل بل هى أكثر ، وحركتها متزنة منسجمة فوق ما يطمح إليه البصر ، وصوتها شجى رخيم كأعذب ما تتوق إليه الأذن من الإيقاع والألحان . وقد أخذت عنها « جرترود » أنماطها وأسلوبها فى الحديث وقلدتها بعض التقليد فى صوتها وطريقة تفكيرها ، بل فى كل شيء عامة — وإنى أبتهج بهذه المشابهة بينهما التى لم تلق كلتاهما بالهما إليها . وأى انشراح يملأ نفسى حين كنت أجد فسحة من الوقت أطول من المعتاد لأقضيها معهما وأمتع النظر بمرآهما جالستين جنباً إلى جنب و « جرترود » متكئة بجبينها على كتف صديقتها أو ممسكة بيديها فى رضا واطمئنان ، وهما تصغيان إلى ما أقرأ من شعر « هوجو » أو « لا مارتين » ! ما كان أعذب عندى أن أتأمل فى نفسيهما الصافيتين انعكاس هذا الشِّعر ! حتى الفتيات الصغيرات كن يتأثرن به إلى حد كبير !

كان نمو هؤلاء الفتيات وتقدمهن أخاذاً فى هذا الجو الذى يشع الدعة والمحبة . ولقد انفرجت شفتاى عن بسمة حين أخبرتنى الآنسة « لويز » أنها تنتوى تعليمهن الرقص حرصاً على صحتهن من

ناحية ، ولتدخل على نفوسهن الغضة مفاتن المسرة من ناحية أخرى ولكني اليوم أعجب أشد الإعجاب بلطف حركاتهن الموزونة التي استطعن أن يُجدْنها وعجزن واحسرتاه عن أن يقدرن قيمتها ! ومع هذا أقنعتني الآنسة « لويز » بأن هذه الحركات التي لا يستطعن رؤيتها ، يدركن انسجامها من الوجهة العضلية .

كانت « جرترود » تشاركهن هذا الرقص مغتبطة مولعة في خفة وظرف . وكانت « لويز » تجامل الفتيات في لهوهن هذا وتنزل عن العزف « لجرترود » في بعض الأحيان ، وقد خطت في فن الموسيقى خطوات تبعث على الدهش الشديد . وهي الآن توقع على أرغن الكنيسة أيام الآحاد وتمهد للأناشيد الدينية بنغمات قصيرة مبتكرة .

وفي يوم الأحد من كل أسبوع كانت تأتي لتتناول طعام الغداء عندنا ، فيستقبلها أبنائي بالفرح والابتهاج برغم اختلاف ذوقهم عنها وازدياد هذا الخلاف شيئاً بعد شيء . ومن حسن الطالع أن «أميلي» كانت تملك نفسها وأعصابها ولا تبدي كثيراً من الضيق والهياج فتنتهي الوجبة في خير وسلام . فإذا غادرنا المائدة قصدنا جميعاً إلى « الهُرْي » مع « جرترود » . وكان أولادي يبتهجون كأنهم في عيد حين يذهبون إلى بيت « لويز » حيث تغمرهم بالعطف وتقدم إليهم ألواناً من الفطائر والحلوى . وامرأتي نفسها كانت تتأثر بكرم

الآنسة وبشاشتها فتنفرج أسارير وجهها وتبـدو فى نضرة من الشباب قشيب .

وفى كل مرة كنت أعتقد أنها لن تصدف عن هذا التحوير فى مجرى حياتها الممل الثقيل إلا فى جهد ومشقة . . .

***

١٨ مايو .

ذهب القر والجليد معه ، ورجع الصحو والدفء والأيام الممتعة ، فاستطعت أن أعود إلى الخروج مع « جرترود » بعـد العجز عنه وقتاً طويلا (إذ كان الثلج قد تساقط مرة أخرى وبقيت الطرق إلى الأيام الأخيرة فى حال سيئة) كما لم أجتمع بها على انفراد منذ زمن بعيد .

خرجنا ذات يوم ، وكان الهواء يلون خديها فيكسبهما حمرة خلابة ويهب على شعرها المسجدي فيتهدل ويسبل على وجهها النضر وهى لا تفترعن أن تنحيه عنه . وكنا نسير فى محاذاة مطحلة فاقتطفت بعض أزهار برية وعقصت بسوقها شعر الفتاة من الخلف تحت قبعتها الصغيرة ليقاوم الهواء ويجنب التشعث .

وإنا لفى طريقنـا والعجب يصحبنا لعودتنـا إلى الاجتماع والخلوة ، ولم نتبادل إلا بعض كلمـات طائشة الغرض ، إذا هى تدير إلىّ وجهها وتسألنى على حين بغتة :

— أتعتقد أن جاك مقيم على حبه ؟

فأجبت فى الحال :

— لقد اعتزم النزول عن حبه والعدول عنك .

— ولكن أتظنه يعرف أنك تحبنى ؟

مضى على الحديث الذى جرى بيننا وروبته فى حينه زهاء ستة أشهر لم تنطق فى أثنائها (وهـذا ما يدهشنى) بكلمة تمس الحب من قريب أو من بعيد ، لأننا لم نكن نجتمع فى خلوة كما ذكرت . . . ما كان أسعدنا لو سارت الحالة على هذا المنوال ! . . . باغتنى سؤالها وخفق فؤادى خفقاناً شديداً ، فاضطررت إلى التمسك فى المسير . ولما تمالكت روعى قليلا ، قلت فى صوت مرتفع :

— الناس جميعاً يا « جرترود » يعلمون أنى أحبك .

لم يقنعها كلامى فقالت :

— كلا ، كلا : إنك لا تجيب على سؤالى .

سكتت قليلا ثم عادت تقول وقد نكست رأسها :

— خالتى «أميلى» تعرف هذا ، ويقينى أن هذه المعرفة ترمض نفسها بالحزن وتقض مضجعها بالألم .

فاحتججت فى صوت ينم عن الاضطراب وضعف الثقة :

— إنها تحزن لغير سبب . وهذا طبعها الذى فطرت عليه .

فأجابت فى لهجة تدل على ضيق الصدر ونفاد الصبر :

— أوه ! إنك تحاول دائماً أن تطمئنى ، ولكنى لا أهتم بهذه الطمأنينة . أعرف أنك تخفى عن إدراكى أشياء كثيرة خشية أن تقلق نفسى أو تؤلمها ... تدعنى أجهل أشياء كثيرة حتى أنى فى بعض الأحيان ...

وكانت وهى تتكلم يخفض صوتها تدريجا ، ثم توقفت كأنما قد استنفدت كل قوتها . ولما كررتُ جملتها الأخيرة فى صيغة السؤال :

— فى بعض الأحيان ؟

قالت فى نغمة الحسرة والاكتئاب :

— أتصور أن السعادة التى أدين بها لك قائمة على الجهل ليس غير .

— ولكن يا « جرترود » ...

— دعنى أتكلم : إنى لا أريد سعادة مثل هذه . ثق بأنى ... بأنه لا يهمنى أن أكون سعيدة . أفضل عندى أن أعرف ... فى الحياة أشياء كثيرة ، وحزينة حقًّا لا أستطيع أن أراها ، ولكن لا يجوز لك أن تكتمنى أمرها وتتركنى أجهل حقيقتها . لقد أدمنت التفكير طوال أشهر الشتاء ، وأخشى أن يكون العالم بأكمله أقل جمالاً ، بل على النقيض مما ألقيتَ فى روعى يا سيدى الراعى .

— فى الحق إن الإنسان قد شوه العالم فى كثير من الأوقات .

نطقتُ بهذه الألفاظ فى خوف ، لأن توثب أفكارها أفزعنى

ونال من جَلَدى ، فحاولت أن أصرف ذهنها عما يعكر صفاءه وأنا يائس من النجاح فيما أقصد إليه . وخيّل إلىّ أنها كانت تنتظر هذه الكلمات القلائل ، لأنها تلقفتها على الفور كأنها حلقة اتصال بين طرفى سلسلة ، وصاحت قائلة :

— هذا هو عين ما أرومه : أود لو أتأكد أننى لا أضيف شرًّا إلى ما هو كائن .

واصلنا المسير فى خطى سريعة وقتاً طويلاً من غير أن ننبس ببنت شفة . وكل ما كان فى مقدورى أن أقوله ، كان يصطدم مقدماً بما كنت أحس أنه يجول بخاطرها . وخفت أن يصدر عنى جملة قد يتوقف عليها مصيرنا ، فآثرت السكوت . وفى هـذه الحالة تذكرت «مارتان» وقوله إن من الجائز المؤمل أن تبصر «چرترود» ، فامتلأ صدرى بانقباض أليم .

وبينما أنا مستغرق فى صمتى مشترك الخاطر مأخوذ اللب ، إذا بها تقول :

— أريد أن أسألك — ولكنى لا أدرى كيف أصيغ السؤال ...

كانت تستصرخ من غير شك كل شجاعتها ، كما كنت أفعل لأقوى على الإصغاء إليها . ولكن كيف كنت أستطيع إدراك السؤال الذى يمضها ويعذب نفسها قبل أن تنطق به ؟

عادت إلى تكملة حديثها :

— هل أولاد الضريرة لا بد أن يولدوا عمياً ؟

لست أدرى أينا كان أشد ألماً من هـذا الحديث ، ولكننا وقد بلغنا هذه المرحلة ، كنا مضطرين إلى الاستمرار فيه فقلت :

— كلا يا « چرترود » ، إلا فى حالات خاصة نادرة ، وفضـلا عن ذلك ، فليس من سبب ألبتة لأن يولدوا كما ذكرتِ .

بدت على وجهها أمارات الاطمئنان ، وكنت أرجو بدورى أن أسألها لمـاذا تطلب هذا الإيضاح ، ولـكنى لم أجد من نفسى الشجاعة ، فتابعت قولى فى نزق :

— تعلمين يا « چرترود » أن الإنسان لـكى يعقب ، ينبغى أن يكون متزوجاً .

— لا تقل هذا يا سيدى الراعى . أعلم أنه غير صحيح .

فاحتججت قائلا :

— قلت لك ما يأمر به التوقر والاحتشام ، أما فى الواقع فإن قوانين الطبيعة تبيح ما تحرمه قوانين البشر وأحكام الله .

— قلت لى مراراً أن شرائع الله هى شرائع الحب نفسها .

— إن الحب الذى يتكلم هنا لم يعد ما يُعبَّر عنه بقولة : الإحسان أو البر أو محبة الله .

— وهل تحبنى بدافع الإحسان ؟

— كلا يا « چرترود » كما تعلمين جيداً .

— إذن تعترف بأن حبنا يخالف أحكام الله ؟

— ما الغرض الذى ترمين إليه ؟

— أوه ! تعرفه جد المعرفة ، وليس من شأنى أن أفصح عنه .

عبثاً حاولت المراوغة والهرب من هذا الموضوع الشائك ، وسمعت الى قلبي يدق معلناً تراجع حججى فى هزيمة منكرة ، فصحت فى حيرة الوله :

— جرترود ، . . . أترين أن « حبك » خاطئ ؟

فقوّمتْ قولى وعدلته :

— إن « حبنا » . . . أقول لنفسى : كان علىّ أن أراه كذلك حين بزغ فجره .

— وإذن ؟ . . .

فاجأت فى صوتى وأنا أنطق بهذه الكلمة ، ما يشبه التوسل والضراعة ، بينما أكملت هى قولها بلا توقف .

— ولكنى لا أستطيع الكف عن أن أحبك .

كل هذا وقع بالأمس ، وقد ترددت فى تدوينه بعض التردد . . . لم أعد أدرى كيف انتهت استراضتنا . . . سرنا فى خطوات سريعة كأننا كنا نروم الفرار ، وذراعها تحت إبطى أضغط عليه ضغطاً شديداً . وخيل إلىّ أننا ، وقد فارقت نفسى

الجسم الذى يحتويها ، سنسقط على الأرض إذا عثرت أقدامنا بحجر مهما يكن صغيراً لا يكاد يُنال بلحظ البصر .

***

١٩ مايو .

عاد إلىّ « مارتان » يبشرنى بأن « جرترود » ستبصر دون ريب ، وأخبرنى أن الطبيب « رو » يؤكد نجاح العمليـة ويطلب استبقاء الفتاة عنده بعض الوقت .

لم يكن لى أن أعترض ، ومع هذا ملكنى الجبن فسألته أن يستمهلنى زمناً قصيراً للتفكير والتروى ، وأن يدعنى أعد نفس الفتاة فى أناة وهدوء . . . كان من المفروض أن يصفق قلبى ابتهاجاً ، ولكنى شعرت به يثقل فى دخيلتى ويرزح تحت عبء مستبهم من الغم يستعصى على البيان . . . كان علىّ أن أعلن إلى « جرترود » الأمل فى رد البصر إليها ، وفكرة هـذا الواجب وحدها أنشأت فى صدرى التخاذل والخور .

***

١٩ مايو ليلا .

رأيت « جرترود » ولم أتحدث إليها فى شىء . وفى هذا المساء ذهبت إلى « المرْبى » ولما لم أجد أحداً فى الثوىّ ، صعدت إلى غرفة الفتاة فجلسنا على انفراد .

. . جلست حذوتها وضممتها إلىّ طويلا فلم تبد منها أقل حركة تدل على التمنع والرغبة فى الابتعاد عنى ، ثم رفعت وجهها إلىّ ، فتقابلت الشفاة . . .

***

٢١ مايو

أمن أجلنا يا رب جعلت الليل شديد العمق رائع الجمال ؟ أمن أجلى يا فاطر السموات والأرض ؟ . . . الهواء دافئ ونور القمر يتهادى إلىّ من النافذة ويغمرنى بفيض من السحر ، وأذنى تنصت إلى سكون السماء الهائل وصمتها الرهيب . لشد ما تذيب قلبى نشوة روحية صامتة فى عبادة مضطربة مختلطة للكائنات جميعاً ! لم أعد أستطيع الصلاة إلا فى كلف وتوَجُّد . . . رب إن كان للحب حد ، فهو ليس من وضعك ، وإنما هو من وضع أبناء آدم . ومهما يظهر حبى آثماً فى أعين الناس ، فألهمنى الإيمان بأنه عندك طاهر نقىّ !

إنى أحاول أن أسمو بنفسى على فكرة الخطيئة . . . إنها تبدو لى بشعة غير محتملة ، ولا أريد على أية حال أن أنحرف عن المسيح . كلا ، إنى لا أقبل أن أرتكب الخطيئة بحبى « لجرترود » ، وليس فى مقدورى أن أقتلع هذا الحب من قلبى إلا باقتلاع القلب نفسه ، ولماذا ؟ لو لم أكن أحبها ، لوجب علىّ ذلك رحمة بها وشفقة .

والعدول عن حبها الآن يكون خيانة لها : إنها فى حاجة شديدة إلى حبي .

رب ، إنى لم أعد أعرف ... لم أعد أعرف غير ذاتك العلية . أنر طريقى يا أرحم الراحمين واهدنى سواء السبيل ! فى بعض الأحيان يخيل إلىّ أنى أغوص فى الظلمات وأتعمق فى طبقات منها بعضها فوق بعض ... إن البصر الذى سيرد إلى الفتاة ، قد زال عن عينىّ وانطفأ نوره !

دخلت « جرترود » بالأمس مصحة الطبيب «رو» بـ «لوزان» وستبقى فيها عشرين يوماً . وإنى أنتظر أوبتها فى قلق وجزع بالغين . سيصحبها « مارتان » فى عودتها كما اتفقنا ، وقد أخذت منى وعداً قبل سفرها أن لا أحاول رؤيتها فى أثناء علاجها .

***

٢٢ مايو

جاءنى خطاب من « مارتان » يبشرنى فيه بنجاح العملية ، فلك أجزل الحمد يا رب !

***

٢٤ مايو .

تبلبل بالى وتسلط علىّ ضيقاً لا يحتمل ، فكرة واحدة : إنه

لا مفر من وقوع نظرها عليّ ، وهى التى أحبتنى إلى ذلك الحين دون أن ترانى !

هل ستعرفنى يا ترى ولا تنكر منى شيئاً ؟ للمرة الأولى فى حياتى ساءلت المرايا فى لهفة وهلع وألحفت فى استنطاقها ! ماذا عسى أن يكون مصيرى إذا شعرت بأن نظرها أقل تسامحاً مما كان قلبها وأضعف حبًّا لى وحدباً عليّ ؟ رحمتك اللهم ! يتمثل لنفسى أحياناً أنى فى حاجة إلى حبها لكى أحبك !

* * *

٢٧ مايو

خفف من غلواء جزعى فى هذه الأيام الأخيرة عمل كثير مرهق . وإنى أعد كل مشغلة تستطيع انتشالى من نفسى مقدسة مباركة ، ولكن صورة « جرترود » تتبعنى خلال كل شىء فى كل حين .

غداً هو اليوم المحدد لعودتها إلينا . ولم تظهر لى « أميلى » أثناء هذا الأسبوع إلا خير النواحى من مزاجها وكأنى بها قد عاهدت نفسها على أن تنسينى الفتاة الغائبة ، وأن تستعد وأولادها للاحتفال بقدومها .

* * *

٢٨ مايو

جمع « جاسبار » و « شارلوت » ما وجدا من الأزهار فى الغابات والمروج والمراعى ، وافتنت « روزالى » العجوز فى صنع فطيرة مثالية هائلة جمّلتها « سارة » بالورق الذهبى وأنواع أخرى من الزينة مختلفة الألوان والصور .

ننتظر وصولها ظهر اليوم . وإنى أكتب لأقطع الوقت وأُعَمِّى على نفسى ألم الانتظار . الساعة الآن الحادية عشرة صباحا . وفى كل لحظة أرفع رأسى وأطلق بصرى إلى الطريق المعين الذى ستسلكه مركبة « مارتان » . وقد كبتُّ فى صدرى الرغبة الملحة فى الخروج لمقابلتهما ، لأنى رأيت خيراً لى وحرصاً على شعور « أميلى » أن لا أسبقها إلى هذا الاستقبال وأنفرد به قبلها .

قلبى يقفز فى صدرى ويكاد ينطلق . . . آه ! لقد حضرا !

* * *

٢٨ مايو مساء .

فى أية ظلمة بشعة أسبح وأنغمس ! الرحمة يارب ! الرحمة ! إنى أعدل عن حبها ، ولكن أنت ياخالق الكون . . . أضرع إليك أن تحفظها من الموت !

* * *

لشد ما كنت على حق فيما انتابنى من الخوف ! ماذا فعلتُ ؟

ماذا كان فى نيتها أن تفعل ؟ أخبرتنى امرأتى و « سارة » أنهما أبلغاها باب « الهرْى » حيث كانت صاحبته الآنسة « دى لا . م » فى انتظارها . لقد أرادت إذن أن تخرج ثانية ... ماذا جرى ؟

كم أحاول أن أهدئ من روعى وأدخل بعض النظام على أفكارى ، لأن الروايات التى تصل إلى سمعى إما مستغلقة أو متناقضة ، وكل شىء يختلط فى رأسى ... بستانى الآنسة « لويز » عاد بها إلى « الهرْى » منذ قليل فاقدة الحس ، ويقول إنه رآها تسير على شاطئ النهر ثم اجتازت جسر الحديقة وانحنت على صفحة الماء ، ثم اختفت ، ولكنه لم يدرك حينئذ أنها سقطت فى اليم فلم يسرع إلى إنقاذها كما كان ينبغى ، ووجدها آخر الأمر على مقربة من السد الصغير حيث حملها تيار الماء .

حين رأيتها بعد ذلك بقليل ، لم تكن قد استفاقت ، أو على الراجح فقدت الوعى ثانية . وبعد لحظات عادت إلى نفسها بفضل ماوُجِّه إليها من العناية السريعة . ومن حسن الحظ أن « مارتان » كان لا يزال معنا ، ولكنه فسر هذا النوع من الذهول أو الخمول الذى اعتراها تفسيراً ناقصاً غير مقنع . وعبثاً سألها واستدرجها ، وكأنى بها لم تسمع شيئاً أو اعتزمت أن تلزم جانب الصمت ، وظل نَفَسُها مطروداً مبهوراً لاهثا حتى خاف عليها « مارتان » احتقان

الرئتين ، فأسعفها بالعلاج الوقتى ووضع على ظهرها المحاجم ثم وعد بالعودة فى اليوم التالى .

وكان الخطأ أنها تُركت وقتاً طويلا بملابسها المبللة بماء النهر الشديد البرودة ، إذ كانت الغاية المرجوة أول الأمر إرجاع الرشد إليها . وقد استطاعت الآنسة « دى لا . م » أن تحصل منها على بعض كلمات يستدل منها على أنها أرادت أن تجمع شيئاً من أزهار « لا تنسنى » التى تنمو بكثرة فى تلك الناحية من النهر ، فزلت قدمها على حين بغتة ، لأنها لم تحسن بعدُ تقدير المسافات واتزان الخطوات أو ربما ظنت بساط الأزهار الطافى فوق سطح الماء أرضاً صلبة تحتمل قدميها . . . آه ! لو تسنى لى أن أعتقد بصحة هذا التعليل ! لو اقتنعت بأن ما حدث جاء عن طريق القدر لا عن عمد ، لألقيت عن نفسى عبئا ما أثقله وأبشعه !

جلسنا إلى المائدة ، وكانت الوجبة فرحة على الرغم مما وقع ، ولكن « جرترود » لم تفارقها بسمة غريبة بعثت فى طويتى أفظع ألوان القلق طول الوقت الذى قضيناه فى تناول الطعام . كانت بسمة مغتصبة لم أعهدها فيها من قبل ، فحاولت أن أنسبها إلى حالة الإبصار الجديدة التى طرأت عليها لأجنِّب نفسى مرارة الحقيقة . . . كأنى بهذه البسمة قد جرت من عينيها عبرات على خديها ، فتضاءل أمامها ابتهاج الآخرين المبتذل وآلم نفسى جد الألم .

لم تشترك « جرترود » فى الفرح ، وكأنما هى قد استكشفت سرا تود من غير شك لو تكون فى خلوة فتسره إلىّ ، وبقيت صامتة لا تنطق إلا بكلمات قليلة فى فترات متباعدة ، وليس هذا بمستغرب منها لأنها فى غالب الأحيان تفزع إلى السكوت كلما ازداد من فى مجلسها صخباً وثرثرة .

رب ، إنى أضرع إليك أن تجيب سؤلى هذا : أوزعها أن تفضى إلىّ بذات نفسها . إنى مضطر إلى المعرفة لأستطيع الاستمرار فى الحياة . . . ومع ذلك هل الرغبة الشديدة التى دفعتها إلى الخلاص من العاجلة ، مأتاها على وجه الدقة أنها « عرفت » وحُسِر عن عينها حجاب الجهل ؟ وماذا عرفت ؟ أى شىء بشع ياصديقتى وقع فى ذهنك ؟ وأى شىء قاتل أخفيته عنك ، وتسنى لك أن تبصر به فجأة ؟

قضيت إلى جانب فراشها زهاء ساعتين ، أرهف السمع لتنفسها المتقطع المضطرب ، وأتفرس فى جبينها ووجنتيها المتقعتين وأجفانها الرقيقة المطبقة على حزن غامض ، وشعرها المبلل المنشور من حول رأسها على الوسادة كحزم صغيرة من الأعشاب البحرية . . .

***

٢٩ مايو

استدعتنى الآنسة « لويز » هذا الصباح حين كنت على وشك الذهاب إليها من تلقاء نفسى . وقد عاد الوعى إلى « جرترود » بعد

أن قضت الليل فى هدوء يشوبه بعض القلق.. ولما دخلت غرفتها قابلتنى بابتسامة ، وأشارت إلىّ بالدنو منها والجلوس على حافة فراشها.

لم أجرؤ على الاستفسار منها عما يجيش فى صدرى ، وكانت دون ريب تخشى أسئلتى ، لأنها قالت على الفور كأنما أرادت أن تتلافى أى تفتح للنفس فتلفظ دفعة واحدة ما يفدحها من الخوالج :

— كيف تسمي هذه الأزهار الزرقاء التى أردت أن أجمعها من شاطئ النهر ؟ أتتكرم بعمل طاقة منها ، وأنت أكثر منى مهارة ودربة ؟ لو جئتنى بها لوضعتها هنا على مقربة من سريرى . . .

آلمنى ابتهاج صوتها المتكلف ، وأدركتْ هى ذلك دون شك إذ قالت فى لهجة جدية :

— لا أستطيع أن أتحدث إليك هذا الصباح لفرط التعب الذى يستولى علىّ . إذهب واجمع الأزهار إذا سمحت ، وأرجو أن تعود إلىّ سريعاً .

رجعت بعد ساعة ومعى طاقة الأزهار المشتهاة ، فقابلتنى الآنسة « لويز » وأخبرتنى أن « جرترود » نائمة ولا يمكن أن تستقبلنى قبل المساء ، فتركت الأزهار وانصرفت .

* * *

رأيتها ثانية هذا المساء ، وكانت شبه الجالسة على الفراش ، وظهرها يستند إلى وسائد بعضها فوق بعض ، وشعرها مرتب

حول جبينها ، تتخلله زهرات من التى جمعتُها .

وكانت الحمى تبدو عليها وتستبد بها ، فلما وقفتُ أمامها ومددت إليها يدى ، استبقتها فى يدها الملتهبة ، وقالت :

— ينبغى أن أسر إليك اعترافاً ، لأنى أخشى أن أموت الليلة . لقد كذبتك فى هذا الصباح . . . لم أكن أحاول اقتطاف أزهار . . . أتصفح عنى إذا قلت إنى أردت إزهاق روحى ؟

خررت جاثياً على ركبتى عند حافة السرير ، ويدى ممسكة بيدها الضعيفة المعروقة ، ولكنها جذبتها فى رفق وشرعت تمسح بها على جبينى ، على حين كنت أدفع وجهى فى طيات غطائها لأخفى عنها دموعى وأكبت تنهداتى .

عادت تقول فى رقة نامية .

— أتجد أن هذا شر عظيم ؟

عييت عن الجواب ، فقالت :

— ترى جيداً ياصديقى أنى أشغل من قلبك وفى حياتك مكاناً فوق ما ينبغى . أدركت هذه الحقيقة عقب رجوعى إليكم ، أو فهمت على الأقل أن المكان الذى أشغله ملك لامرأة أخرى يحزنها ويدمى قلبها اعتدائى عليه واغتصابى إياه . وجريمتى أنى لم أشعر بهذا مبكرا وفى الوقت الملائم ، أو على الأقل — وقد عرفت ذلك الآن — أنى تركتك تحبنى على الرغم من كل الظروف . ولكن لما تجلى لى

وجهها بغتة ورأيت سحابة الحزن العميق تتدجّى فيه ، أرمضتنى بالألم هذه الفكرة : أن حزنها من صنعى ونسج يدى ، فلم أعد أحتمل عبئها القاتل . . . لستَ مخطئاً ولا ملوما ، ولكن دعنى أفسح لها المكان ورُدّ عليها الطمأنينة والفرح .

توقفت يدها عن ملاطفة جبينى ، فأمسكتُ بها وغمرتها باللثمات والعبرات ، ولكنها جذبتها فى حركة تدل على ضيق الصدر وطفق يهمى على قلبها سيل حزن جديد ، فقالت :

— ليس هذا ما أردت أن أقوله ، وليس هذا ما أريد أن أقول .

كررتْ الجملة الأولى ثم سكتت ، ورأيت العرق يتصبب من جبينها . وبعد لحظات أغمضت عينيها وبقيت على هذه الحال بعض الوقت كأنما اعتزمت أن تستجمع فكرها أو توهم نفسها بأنها عادت سيرتها الأولى من ظلمة العين . فلما تم لها ما أرادت ، قالت بصوت كسير حزين وهى تفتح عينيها ، ولم يلبث أن قوى وارتفع حتى صار حادا شديداً :

— لما رددتَ علىّ البصر ، فتحت عينى على عالم أجمل مما استطعتُ أن أتوهمه فى تأملى وخيالى . نعم فى الحق لم أتصور النهار والجو والسماء فى مثل هـذا النور والصفاء والاتساع ، وكذلك لم يدر بخلدى قط أن جبين البشر يحمل هموماً إلى مثل هذه الدرجة .

وحينما ابتُ من سفرى ودخلت عليكم ، أتدرى أى شىء ظهر لى

لأول وهلة ؟ . . . آه ! مهما يكن من شيء ، فإنى مضطرة إلى الجهر لك : لم أر عند دخولى إلا خطأنا ، بل خطيئتنا . . . لا تحتج . . . تذكر قول المسيح « لو كنتم عميا ، لما كان لكم خطايا مطلقا » . . . الآن أرى حكمة هذه الآية وأدرك مغزاها . . . إنهض أيها الراعى واجلس هنا على مقربة منى ، ثم اصغ إلىّ ولا تقاطعنى . قرأت أثناء إقامتى عند الطبيب — أو قرئ لى على الراجح — قطعاً من التوراة كنت أجهلها ولم تقرأها أنت لى قط . وإنى لأذكر آية لبولص الرسول كررتها لنفسى يوماً كاملا ، وهى « أما أنا ، وكنت فى الزمن السالف بلا قانون ، فقد عشت . ولكن لما جاءت الوصية ، انتعشت الخطيئة وزارتنى المنية » .

كانت تتكلم فى تمجيد بالغ وبصوت مرتفع يكاد يبلغ حد الصراخ حين نطقت بالكلمات الأخيرة ، حتى خشيت أن يصل إلى سمع الجالسين خارج الغرفة .

ثم عادت فأغمضت عينيها وكررت هذه الجملة فى صوت خافت كأنما تحدث نفسها : « انتعشت الخطيئة — وزارتنى المنية » .

استقلتنى رجفة ، وانقض على قلبى نوع من الرعب كاد يوقف دقاته . ومع هذا أردت أن أصرف ذهنها عن فكرة الموت ، فقلت :

— من ذا الذى قرأ لك هذه الآيات ؟

فأجابت وهى تفتح عينيها وتحدق فى وجهى :

— تلاها علىّ « جاك » . . . ألا تعرف أنه صدف عن المذهب البروتستانتى واعتنق المذهب الكاثوليكى ؟

شق علىّ هذا الخبر ، وكنت على وشك أن أسألها الصمت فى رجاء وضراعة ، ولكنها استمرت فى قولها :

— إنى أسبب لك ألماً كثيراً ياصديقى ، ولكن ينبغى أن لا يقوم بينى وبينك ظل من الكذب . لما رأيت « جاك » ، أدركت فجأة أنه لم يكن أنت الشخص الذى أحبه ، بل كان إياه . له وجه كوجهك تماماً ، أريد أن أقول إن له وجهاً يماثل وجهك الذى تصورته . . . آه ! لماذا أوعزتَ إلىّ أن أرفض عواطفه وأرد حبه ؟ كان فى وسعى أن أتخذه حليلا . . .

فصحت قائلا فى يأس :

— لا يزال فى وسعك إتمام هذا الزواج .

فأجابت فى حدة :

— لقد ترهَّب .

ثم صَعَّدَت أعمق التنهدات . ولما هدأ بعض ما بها ، غمغمت قائلة فى ذهول روحى :

— آه ! أود لو أعترف له . ترى جيداً ياسيدى الراعى أنى على قاب خطوات من الموت . أشعر بظمأ شديد ، فتفضل واستدع أى إنسان . إنى أختنق . . . دعنى وحدى . . . آه ! كنت أرجو

أن أجد متلمساً من العزاء فى التحدث إليك على هذه الصورة . أتركنى ، أتركنى . لم أعد أحتمل رؤيتك .

غادرتُ الغرفة وناديت الآنسة « دى لا . م » لتحل محلى . وكان انفعالها الشديد يخيفنى وينذرنى بأسوإ العواقب ، ولكنى أذعنت لأمرها بعد إقناع نفسى خشية أن يزدها بقائى سوءا ، ورجوت من ربة الدار أن تخطرنى إذا تفاقمت حالتها .

***

٣٠ مايو

وا أسفاه ! كُتِب علىّ أن لا أراها بعد ذلك إلا مسجاة فى الفراش . إنها استوفت أنفاسها عند طلوع النهار هذا الصباح بعد أن قضت ليلة فى الهذيان والآلام المبرحة . وقد أرسلت الآنسة « لويز » برقية إلى « جاك » إنفاذاً لرغبة « جرترود » الأخيرة ، تدله على رداءة الحالة ، فلم يستطع أن يصل إلا بعد موتها ببضع ساعات . ولما تقابلنا وجَّه إلىّ أعنف اللوم لأنى لم أستدع للفتاة قسيساً قبل فوات الوقت . ولكن كيف كنت أفعل ذلك ، ولا أزال أجهل أنها اعتنقت المذهب الكاثوليكى أثناء إقامتها « بلوزان » سيراً على حكمه دون ريب ؟ ! ثم أعلن إلىّ فى وقت واحد وضربة واحدة اعتناقه وإياها هذا المذهب الدينى . . . . . وكذلك فارقنى هذان المخلوقان ، وكأنى بهما وقد كنت سبب التفرقة بينهما فى الحياة ، قد

دبرا خطة الهرب منى ليتحدا فى الله على استواء . ولكنى فهمت واقتنعت بأن انقلاب « چاك » الدينى يرجع إلى التعقل والروية أكثر مما يرجع إلى الحب ، لأنه قال لى :

— أبى ، ليس من الملائم أن أتهمك ، ولكن مَثَل خطئك هو الذى أرشدنى وهدانى .

لما سافر « چاك » ، ركعتُ على مقربة من « أميلى » وسألتها أن تصلى من أجلى ؛ لأنى كنت فى حاجة إلى العزاء والمعونة ، فقالت فقط هذه الصلاة « يا أبانا الذى فى السماء . . . . . » وهى تفصل بين كل آية وأخرى بصمت طويل يشغله ابتهالنا وضراعتنا .

لشدّ ما كنت أود لو تسحّ جفونى ، ولكنى شعرت بقلبى أكثر جدباً من الصحراء . . . .

بعض كتب الأستاذ حسن صادق

١ ــ نظرات تاريخية دستورية

٢ ــ القَصَص

٣ ــ ادولف

٤ ــ الحب والدسيسة